
القضية
الكبرى
وحيد الدين خان

Rs 70/-

الأخ سليم

القضية الكبرى

مقدمـــة ..

إن الموت هو الإعلان النهائي لإنتهاءِ مدة السعي والجهاد، وليست الآخرة إلا المكان النهائي الذي يرى فيه الإنسان نتيجة مساعيه ولن تتاح للمرء فرصة أخرى للسعي بعد الموت، وإن حياة الآخرة حياة أبدية لا نهاية لها كم كان هذا الوضع مهماً لو أدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل الموت لإن إدراك ذلك بعد الموت لا يُجدي شيئاً !

إن الانتباه بعد الموت لا يعني إلا أن يتأسف الإنسان على فداحة خطئه في الماضي الذي لا يمكن تداركه حينئذ.

إن الإنسان غافل عن المصير الذي ينتظره، فالأيام تجري بسرعة كبيرة لتبلغ به إلى ذلك الوقت الذي هو وقت حصاد المحصول، إنه مشغول في الحصول على المنافع الدنيوية ويظن أنه يعمل عملاً مثمراً ولكنه في الحقيقة يضيّع أوقاته الثمينة.

إن أمامه فرصة عظيمة يمكن أن يستغلّها ليصنع لنفسه مستقبلاً زاهراً، ولكننا نراه يلعب بالحصى، إن ربه يدعوه إلى جنته التي أعدَّها لتكون مكاناً للراحة والعزة الأبدية ولكنه لا يزال منعماً في اللذات الكاذبة التي لا تدوم، إنّه يظن أنه في طريق الكسب والمنفعة، والحقيقة إنه في طريق الضياع، إنه يظن بعد بناء داره في هذه الدنيا أنه يقيم حياته على أسس مستقيمة ومتينة، والحقيقة أنه يبني جدران الرمال التي لا تبني إلا لتنهار.

إعرف نفسك أيها الإنسان ...... ماذا تفعل؟ وماذا ينبغي لك أن تفعل .

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ماهى القضية الكبرى للإنسان اليوم ؟

لو طرح هذا السؤال فى جلسة لكانت إجابات الناس مختلفة وردودهم شتى فمنهم من يقول إن القضية الكبرى هى فرض الحظر على اختبار الأسلحة النووية ومنهم من يقول إن ازدياد سكان العالم هو القضية الكبرى وآخرون يقولون إنّ الإنتاج وتوزيع الثروات هو أهمّ وأعظم القضايا .

وخلاصة القول أنك تسمع ردوداً وإجابات متنوعة تظهر بوضوح أن الناس عامةً لا يدركون حقيقة أنفسهم حتى الآن ، إذ لو عرف الإنسان نفسه لكانت ردود النّاس واحدة ، ولقال الجميع بأن قضية الإنسان الكبرى اليوم هى أنه قد نسى حقيقة نفسه ، وأنه غافل عن حقيقة هامة وهى أنه سيموت يوماً ويذهب بعد الموت إلى مالكه ليحاسب على أعماله ، ولو فهمنا حقيقة الحياة لقلنا يقيناً إن الآخرة هى قضيتنا الأصلية والأساسية وليست الدنيا .

إن أغلبية سكان العالم اليوم يؤمنون بالله وبالآخرة ، ولا يصح أن نقول إنهم منكرون لهما ولكن يمكن أن نقول إنه لا علاقة لهذا الإيمان بعملهم ، فكلّ إنسان فى هذه الحياة يعمل ليلًا ونهارا من أجل إنجاح دنياه الحاضرة .

لو أعلنت مراكز الإرصاد يوماً ما أن الأرض قد فقدت جاذبيتها ، وأنها بدأت تقترب إلى الشمس بسرعة ستة آلاف ميل فى

الساعة لحدثت ضجةٌ فى العالم أجمع لأنَّ مثل هذا النبإ يعنى انعدام الحياة بجميع صورها على وجه الأرض فى بضعة أسابيع ، ولكنّ هناك خطراً أشدّ منه يواجه العالم كل لحظة ولا أحد يحسّ بضرورة الفزع منه ، ماهو هذا الخطر ياترى ؟ إنه خطر يوم القيامة الذى قدّر لهذا العالم يوم خُلقت الأرض والسماء ، ونحن جميعاً نتجه نحو هذا القدر بسرعة رهيبة .

إنّ الناس جميعاً يعترفون بذلك على مستوى العقيدة ولكن قليلون هم أولئك الذين يحسّون بضرورة التفكير فيه .

لو وقفنا فى أحد الأسواق العامة ذات مساءٍ وراقبنا حركة الناس ومساعيهم ثم فكرنا فى ذلك قليلًا لعرفنا ما الشيء الذى جعله إنسان اليوم قضيته الكبرى تأملوا قليلًا : لماذا يتكرر ذهاب السيارات وإيابها فى الأماكن المزدحمة ولماذا يزين أصحاب المتاجر متاجرهم ؟ وإلى أين تذهب جماعات الناس ومن أين تأتى ياترى ؟ ماهو موضوع الناس ؟ ماذا يريد الناس ؟ ولأىّ غرض تتمّ لقاءاتهم ؟ وفى أىّ شيء ينفقون أموالهم ؟ ولأىّ شيء تنصرف مواهبهم وكفاءاتهم العالية ؟ بأىّ شيء يبتهج المبتهجون ؟ والوجوه الكئيبة لماذا تبدو كئيبة ؟ ماذا يحمل الناس معهم حين يخرجون من بيوتهم ؟ وماذا سيحملون معهم عند عودتهم ؟ .

لو أدركنا إجابة هذه الأسئلة ونحن نتأمل حركة الناس وهم منهمكون فى أعمالهم ونسمع أصواتهم التى تخرج من أفواههم ونرقب أفعالهم لعرفنا كذلك جواب ذلك السؤال ، أعنى أىّ

شيء يعتبره إنسان اليوم قضيته الكبرى وما الذى يريد تحقيقه ؟ الحقيقة أن حركة الأسواق ورونقها وحركة الناس المستمرة من ذهاب وإياب عبر الشوارع المزدحمة تعلن أن إنسان اليوم يجرى وراء رغباته وشهواته ، ويريد أن يحصل على الدنيـا لا على الآخرة ؛ فإذا رأيت الإنسان مبتهجاً فاعلم أن رغباته وأمانيه الدنيوية قد تحققت أو أوشكت أن تتحقق ، وإذا رأيته حزيناً فاعلم أن رغباته وأمانيه الدنيوية لم تتحقق بعد وليست على وشك التحقق ، وإنّ تحقيق حاجات اليوم وراحة اليوم وعزة اليوم واغتنام فرص اليوم هو الذى يسمى نجاحاً عند الناس اليوم ، والحرمان منها هو الذى يسمى عندهم الفشل والخيبة ، وهذا هو الذى تمشى وراءه القافلة الإنسانية بأسرها ولا أحد فيها يفكر فى اليوم القادم ، وبالجملة فإنّ كلّ إنسان أصبح كالمجنون لاهثاً وراء دنيا اليوم .

وهذه الحالة ليست قاصرة على المدن الكبرى ، بل نجدها فى أىّ مكان يوجد فيه جماعة من الناس ، فأنت إذا رأيت واحداً منهم وجدته غارقاً فى نفس الحالة وتسيطر عليه نفس الفكرة سواء فى ذلك الرجل أو المرأة الغنى أو الفقير المسنّ أو الشابّ الجاهل أو العالم المدنى أو القروىّ بل حتى المتدين والملحد كلهم سائرون إلى وجهة واحدة ليس غير .

إنّ أكبر أمنية للإنسان اليوم هى أن يحصل فى هذه الدنيا على كل ما يستطيع أن يحصل عليه ، ويعتبر ذلك هو عمله فَلأجله يصرف أحسن أوقاته وكفاءاته ومواهبه ويظل غارقاً فى التفكير فيه

ليلًا ونهاراً ، حتى إنه يُضَحّى من أجله بضميره وإيمانه ، ولا يجد فى ذلك بأساً ، إنه على استعدادٍ لتقديم ضميره وإيمانه قرباناً لهذه الآلهة ، وهو يريد أن يحرز الدنيا بأيّة وسيلة ومهما كان الثمن .

ولكن هذا النوع من النجاح هو نجاح دنيوىّ فحسب ، ولا يمكن أن ينفع فى الآخرة البتة ، فمن كان جُلّ همّه أن يبنى دنياه اليوم وهو غافل عن جانب الآخرة ، فإنّ مثله كمثل من لا يدّخر لكهولته أيام شبابه حتى إذا انهارت قواه وتزعزعت ، وأصبح عاجزاً عن العمل ، أدرك أنه لا ملجأ له ولا سكن ، إنه يرى نفسه آنذاك بدون منزل وهو لا يستطيع أن يبنى لنفسه منزلًا ، إنه يرى نفسه بدون ملابس وبدون فراش يحمى به نفسه من شدائد فصول السنة وهو لا يجد فى نفسه قوة يوفر بها لنفسه الملابس والفرش ، وإنه يرى نفسه غير قادر على تدبير طعامه .

إنه سيلجأ إلى ظل حائط وسيلتفّ بخرقةٍ والكلاب تنبح عليه من كل جانب والأطفال يقذفونه بالحصى .

إننا نرى هذه المشاهد بأعيننا ، ويمكن لنا أن نتصور من خلالها كيف تكون حياة الآخرة لمن لَمْ يُعِدَّ العدّة لها ، ولكن بالرغم من ذلك لا نشعر بشىء من القلق تجاهها ، كلٌّ منا منشغل ببناء وتعمير يومه فقط ولا أحد يفكّر فى غَدِه أبداً .

عندما تنطلق صفارة الإنذار معلنة عن غارة جويّة خلال أيام الحرب وتعلن بصيحتها المروّعة والمخيفة أن سرباً من طائرات العدوّ متوجه إلينا وحاملٌ القنابل المدمّرة وأنه سيملأ المدينة بنيرانها ودخانها

فى بضع دقائق وأنه على كلّ شخص أن يتوجه إلى مخبإ قريب منه ، وفجأة تصبح الشوارع العامرة خالية ، حتى إنه من لا يفعل ذلك يقال عنه أبله أو مجنون .

هذا شأنُ خطرٍ صغير فى الدنيا ، فما بالك بخطرٍ أكبر وأهمّ من هذا الخطر ، إنه خطر سيحدث حتماً ، قد أخبر عنه وأنذر به مالك هذه الكائنات ، لقد أعلن الله تبارك وتعالى على لسان رسله : **أيها الناس اعبدوا الله ربّكم ، وليؤدّ كلٌّ منكم حقَّ الآخر ، واقضوا حياتكم وفق مرضاة الله ، ومن لم يفعل ذلك فسوف يعاقب عقاباً شديداً لا أحد يستطيع تصوره ، إنه عذاب أبدىّ يتألم فيه الإنسان المعذَّب أبداً ولا يمكن له الخلاص منه إلى الأبد .**

لقد سَمِعَتْ هذا الإعلان كل أذن ، واعترف به كل إنسان بأىّ شكل من الأشكال ولكن إذا نظرت فى أحوال الناس وجدت هذا الأمر ليس جديراً بالاهتمام ، يعمل الناس كل مالا ينبغى عمله للحصول على منافع دنيوية ، وتندفع قافلة الحياة بسرعة إلى الطريق المحظور التوجه إليه ، ويجرى الناس فوراً استجابة لصفارة الإنذار التى انطلقت من مركز القيادة العسكرية ، ولكن لا أحد يقلق من هذا الخطر الذى أعلن عنه مالك الكائنات ، ولا يُهْرَعُ الناس استجابة لندائه الذى جاء على لسان رسله .

ماهو السبب فى ذلك ؟

إن السبب هو أن الخطر الذى تعلن عنه صفارة الإنذار

العسكرية يتصل بعالم اليوم الذى يراه الإنسان بأُمّ عينه ويحسّ بنتائجه فى الحال ، ولكنّ الخطر الذى أعلن عنه مالك الكائنات سيحدث بعد الموت ، ويحول بيننا وبينه جدار الموت وهو لا يتراءى لأعيننا اليوم ، إننا لا نرى طائراته أو قنابله أو ناره أو خطر دخانه ، لذلك فإننا نوقن بصفارة الإنذار الجوية ونستجيب لندائها فوراً ، ولكن لا يتولّد فينا أىّ خوف بعد الاستماع إلى نبإ العذاب الذى أنذرنا منه الله وأخبرنا به على لسان رسلهِ ، ولا ينشأ فينا بسببه ذلك اليقين الذى يحدث فينا استجابة للعمل .

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمنحنا فقط العينين اللتين تبدوان تحت الجبهة وتريان الأشياء الموجودة أمامها ، إنّ لدينا عيناً أخرى غيرهما تستطيع أن ترى إلى مدى أبعد ، إنها ترى الحقائق المختفية أيضاً . وهذه العين هى عين العقل .

إن سبب انعدام اليقين فى الناس هو أنهم لا يستخدمون عينهم الأخرى هذه ، فيظنون أنّ ما يرونه هو عين الحقيقة ، غير أنهم لو نظروا فى الأمر بإمعانٍ وأعملوا الفكر فيه لأدركوا أنّ ما يرونه بأعينهم ليس أكثر يقيناً من الغائب عن نظرهم .

لو سأل أحد هذا السؤال :

ـ ماهى الحقيقة التى يؤمن بها كل شخص فى هذا الكون ؟

لكان الجواب واحداً فقط وهو الموت ...

إنّ الموت يعتبر من الحقائق التى يضطر للاعتراف به كل صغير وكبير ، فكلنا نعلم أن الموت يمكن أن يدركنا فى أيّة لحظة ، ولكن

الموت إذا خطر ببال أحدٍ منا فإنّه لا يفكر فى الغالب إلّا فى هذا السؤال : ماذا سيحدث لأولادى بعد وفاتى ؟ .

إنّ الناس يفكرون كثيراً فى حياتهم وفى أنفسهم قبل الموت ولكنهم إذا اقترب منهم الموت فإنهم لا يفكرون إلا فى مصير العائلة ،والأولاد بعد الموت.

إنّ الناس يصرفون جلّ عمرهم فى حفظ وتأمين مستقبل أولادهم ولكنهم لا يسعون ولا يبذلون أىّ جهد فى المستقبل الذى سيواجهونه هم أنفسهم حتماً ، كأنه لا يبقى بعد وفاتهم إلا وجود أولادهم وأنه لا يكون لهم وجود يحتاج إلى الاستعداد ولعلّ تفكير الناس بهذا الأسلوب ينبىء بأنهم لا يحسون بحياة بعد الموت ، رغم أنّ الحياة الأصلية إنما تبدأ بعد الموت فقط ، إنّهم لو كانوا على يقين بهذا الواقع الذى سيواجهونه حين يدفنون فى قبورهم ــ لأنهم فى الحقيقة لا يدفنون فى قبورهم ولكنهم يدخلون فى عالم آخر ــ لو أدركوا ذلك لخطر ببالهم سؤال آخر بدل تفكيرهم فى مستقبل أولادهم وهو : **ماذا ستكون عاقبتى بعد الموت ؟**

الحقيقة أنّ أغلبية سكان العالم سواء المتدينين أو الملحدين قد أصبحوا مجرّدين من هذا اليقين ، وهو أنّ الإنسان لا يفنى بل إنه يدخل فى حياة جديدة ، حياة ذات حقيقة أكثر من هذه الحياة الدنيوية .

ممَّ يتولد الشك فى الحياة القادمة بعد الموت ؟

إن سبب ذلك شيئان : **أحدهما** : أنّ كلّ إنسان يندثر فى

التراب بعد الموت وحين نرى فناء الإنسان بعد الموت لا نفهم كيف يبعث مرة ثانية .

وثانيهما : أن العالم الذى سيوجد بعد الموت غائب عن أنظارنا تماماً ، فكلّ شخص يرى عالم اليوم بعينه ولكنّ أحداً لم ير بعدُ عالم الغد وعالم الآخرة ، لذا لا يوجد فينا اليقين بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة أو أية حياة غير الحياة التى نعيشها ، لنفكر الآن فى هذين الأمرين :

أولًا : الحياة بعد الموت

ــ عندما أموت وأصبح تراباً هل يمكن أن أبعث مرة ثانية ؟

قليلٌ من الناس يفكرون فى هذا السؤال بهذه الكيفية إلا أنّ هذا السؤال يوجد حتماً فى ذهن كل شخص لا يؤمن من أعماق قلبه أنه سيواجه بعد الموت حياة جديدة ، إنه غير ظاهر ولكنه موجود بلا ريب ، والشخص الذى لا يفكر فى حياته الحاضرة عن حياته فى الغد يقدم الدليل على أنه فى شك من حياة الغد سواء فكر فى هذه المسألة أم لا .

إننا لو فكرنا جديّاً فى هذه المسألة لأدركنا حقيقتها بسهولة وبدون عناء ، حيث إنّ الله سبحانه وتعالى قد أخفى عن أعيننا الحقائق والوقائع التى ستعترينا بعد الموت بسبب امتحانه إيانا ولكن آيات كثيرة لا تحصى نجدها مبثوثة فى الكون لو أمعنا النظر فيها لفهمنا من خلالها جميع الحقائق ، فالكائنات مرآة تعكس صورة العالم الآخر .

إنكم تعلمون جيداً أننا لم نكن على صورتنا الحالية منذ اليوم الأول لوجودنا وأن الإنسان ينشأ من مادة حقيرة ــ ليس لها شكل المادة ــ تكبر فى رحم الأم وتنمو لتتخذ لها شكل الإنسان ، ثم إن هذا الإنسان يخرج إلى النور ويترعرع حتى يصبح إنساناً كاملاً .

إنّ مادة حقيرة غير واعية ومتناهية فى الصغر حتى إننا لا يمكن أن نراها بالعين المجردة تصبح بعد النمو إنساناً طوله ستة أقدام ، وهذا الحادث يقع أمامنا كلّ يوم فى هذا العالم ، فأىّ صعوبة تواجهنا فى الفهم بعد ذلك إذا قلنا إن أجزاء أجسامنا المنتشرة فى الأرض بعد أن تتحول إلى ذراتٍ متناهية فى الصغر يمكن أن تتخذ شكل الإنسان مرة أخرى .

إنّ كلّ إنسان تراه اليوم يمشى على قدميه هو فى الحقيقة مجموع ذرات كثيرة فى صورة إنسان ، تلك الذرات كانت منتشرة قبل ذلك فى أرجاء أرضنا وفضائنا المجهول ثم أخذ الهواء والماء والغذاء هذه الذرات وجمعها فى صورة« الإنسان » .

إذن مجموع تلك الذرات المنتشرة فى أرجاء الكون نراها الآن فى شكل إنسان يتحرك ويمشى على قدميه ، وهذا الحدث ذاته سوف يتكرر مرة أخرى فتنتشر أجزاء وجودنا بعد موتنا فى الهواء والماء والتراب ، ثم يصدر أمر الله سبحانه وتعالى فتتجمع هذه الأجزاء وتتخذ شكل الإنسان وتتجسّد كما تجسّدت فى المرة الأولى .

فأيّة غرابة فى حادث ظهر من قبلُ ثم تكرر حدوثه مرة ثانية ! وأية غرابة فى هذا الحدث ونحن نرى أمثلة كثيرة فى هذا العالم المادىّ

تشير إلى نفس الحقيقة وهى أنّ الحياة يمكن أن تعاد مرة ثانية ، مثلًا : تأتى الأمطار فى موسمها من كلّ عام لتكسو سائر أرجاء الأرض خضرة وجمالًا ، ثم يأتى فصل الصيف ليقضى على هذه الخضرة فتصبح الأرض مقفرة جرداء ، إذ الأماكن التى كانت تغمرها الخضرة أصبحت ميادين جدباء قاحلة ، وهكذا تنشأ حياة ثم تنتهى ، ولكن إذا جاء موسم الأمطار فى المرة الثانية وأمطرت السماء تدبّ الحياة فى تلك الأعشاب لتبدأ حياة جديدة ، فتغمر الخضرة من جديد الأرض الجدباء ، وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان فإنه سيبعث ليحيا حياة جديدة بعد الموت ، دعنا نأخذ جانباً آخر من القضية .

إنّ الشك فى الحياة بعد الموت ينشأ فينا لأننا نتصور أنفسنا مجرد الوجود الجسمانى الذى يظهر لنا ، فنظن أنّ الجسم الذى يبدو متحركاً وماشياً على القدمين هو الإنسان الحقيقى والأصلى ، فإذا أصبح عفناً وبالياً وأجزاء منتشرة فى التراب فلا يمكن بعثه فى صورة إنسانٍ مرة أخرى ، وإننا نرى بأعيننا الموت وهو يدرك إنساناً حياً فيصبح صامتاً ساكناً لا حراك فيه ، إذ تنتهى فاعليته وقدراته ثم هو يدفن بعد ذلك فى الأرض أو يحرق ويلقى فى الأنهار وفق طقوس بعض الشعوب ، ثم بعد أيام قليلة يندثر جسمه وتنتشر أجزاؤه ويصبح جزءاً من الأرض بعد أن تحول إلى ذراتٍ واندثر حتى لا يتراءى لنا أىّ وجود له .

وهكذا نرى كلّ يوم إنساناً حيّاً يدركه الفناء والموت ولكننا لاندرك كيف يُبعث هذا الإنسان مرة ثانية بعد أن فنى واندثر .

ولكن فى الحقيقة إن وجودنا الأصلى والحقيقى ليس مجرد جسمنا

هذا الذى نراه متحركاً وماشياً ، بل هو ذلك الإنسان الداخلىّ الذى لا يظهر للعين والذى يفكر ويحرّك الجسم ويجعله إنساناً حياً ، والذى يغادر الجسم بعد الموت فيتركه جسماً خالياً من أىّ نوع من الحياة .

والحق أنّ الإنسان ليس مجرد جسم بعينه بل هو ذلك الروح التى توجد فى داخل الجسم ، وكما هو معروف لدينا فإنّ الجسم يتكون من ذرات كثيرة صغيرة تسمى (الخلايا الحية) وهذه الخلايا تحتل فى جسمنا نفس المكانة التى تحتلها اللبنة فى بناءٍ ما ، إنّ لبنة بنائنا الجسمانى أو بعبارة أخرى (الخلايا) لا تزال تتكسر خلال حركتنا وأعمالنا بشكل مستمر ، ونحن نكمل الخلايا عن طريق الغذاء ، فالغذاء يصنع بعد عملية الهضم مختلف الخلايا التى تكمّل مايتكسر أو ينقص من الجسم ، وهكذا يتغيّر جسم الإنسان دائماً فتتكسر الخلايا القديمة لتحلّ محلّها الخلايا الجديدة ، ويجرى هذا العمل كل يوم ، حتى إنّ الجسم كلّه من أوله إلى آخِره يصبح جديداً بعد فترة وجيزة ، وهذا العمل يستغرق عشر سنوات تقريباً ، وبتعبير آخر فإن جسمك الذى كان قبل عشر سنوات لم يبق منه اليوم شىء فجسمك اليوم جسم جديد والأجزاء التى تكسرت وانفصلت عن جسمك خلال عشر سنوات لو أمكن جمعها كلّها لأمكن بناء شخص آخر يشبهك تماماً ، حتى إنك إذا بلغت من العمر مائة سنة فإنّه يمكن بناء عشرة أشخاص مثلك تقريباً ، هؤلاء الأشخاص مثلك فى الظاهر ولكن فى حقيقة الأمر ماهى إلّا أجسام ميتة أنت لست موجوداً فيها لأنك قد اتخذت لنفسك قالباً جديداً وتركت الأجسام القديمة .

وهكذا يستمر جسمك فى عملية البناء والهدم دون أن يحدث

أىّ تغير فى ذاتك ، إنّ الشيء الذى نسميه (أنا) لا يزال باقياً كما هو ، فلو عقدت معاهدة مع أحد قبل عشر سنوات ، فإنّك ستعرف دائماً بأنك أنت الذى عقدت هذه المعاهدة مع أن جسمك القديم لم يبق معك ، فلم تبق على جسمك تلك اليد التى وقّعتْ على وثائق المعاهدة ، ولم يبق ذلك اللسان الذى كان قد تفاوض على المعاهدة ولكنك أنت مازلت موجوداً وباقياً وتعترف بأنّ المعاهدة التى وقعت قبل عشر سنوات هى معاهدتك ومازلت ملتزماً بها ، وهذا هو الإنسان الداخلىّ الذى لا يتغيّر رغم تغيّر الجسم بل يبقى هو نفسه حتى بعد وقوع تغيّرات عديدة فى الجسم .

ويثبت من هذا كله أنّ كلمة الإنسان ليست اسماً لجسم خاص يموت الإنسان بموته بل هى اسم لروح تحتفظ لنفسها بوجود منفصل ومستقلّ عن الجسم ، وتبقى كما هى حتى بعد اندثار الجسم وانتشار أجزائه ، ولعل تغيّر الجسم وعدم تغيّر الروح يدلّ بوضوح على أنّ الجسم فانٍ وأنّ الروح باقية لا تقبل الفناء .

يقول بعض الجهّال إنّ الحياة والموت عبارتان تطلقان على تجمّع بعض الأجزاء الماديّة ثم انتشارها ، فإذا اجتمعت هذه الأجزاء تكونّت الحياة وإذا انفصلت وقع الموت ، ويشير إلى هذه النظرية شاعر أوربى يدعى (جكبست) حيث يقول :

ليست هذه الحياة إلا تركيباً وترتيباً جيداً
لعناصر الكون وأجزائه والموت عبارة عن انتشار
هذه الأجزاء وانفصال بعضها عن بعض

إن هذا الكلام كلام ساقط ليس له أساس علميّ ، وإذن لو كانت الحياة عبارة عن تركيب وترتيب بعض الأجزاء والعناصر وظهورها فى الوجود ، لكان ينبغى أن تبقى هذه الحياة مابقى ترتيب هذه العناصر ، ولأمكن لأىّ عالِمٍ بارع وذكىّ أن يجمّع هذه العناصر ويهبها حياة جديدة ، ولكننا نعلم أن كلا الأمرين مستحيل .

إننا نرى أنه لا يوجد بين الموتى مجرد أولئك الذين تحدث لهم حادثة فتتقطّع أجسامهم إرباً إرباً ، ولكن الموت يأتى فى صور مختلفة ويعترى كلّ الناس مهما كانت أحوالهم وأعمارهم ، فأحياناً يصاب إنسان يتمتع بالصحة والعافية بنوبة قلبية فتتوقف حركة قلبه فجأة حتى إنّ الطبيب يعجز عن معرفة سبب توقّف حركة قلبه ، وإننا نرى جسم الميت كجسم إنسان نائم ، وإنّ عناصر ومكونات جسمه باقية على ترتيبها ونظامها السابق إلّا أنّ الروح التى كانت موجودة فيه قد فارقته .

إنّ جميع العناصر موجودة فيه بنفس ترتيبها السابق وكما كانت موجودة فيه قبل دقائق ولكن لا توجد فيه الحياة ، إذن ترتيب العناصر المادية لا يخلق الحياة ، والحياة شيء آخر منفصل عنها تماماً ولها وجودها المستقل .

لا يمكن أن يُصنَع إنسان حىّ فى معمل كيماوى أو علمى ، وإن كان يمكن أن يُصنَع شكل الجسم فى أى وقت ، وقد علمنا أنّ أجزاء الجسم الحىّ تتكون من ذرات كيميائية بسيطة ، حيث نجد فيها الكربون الذى نراه فى الفحم ونفس الهيدروجين والأكسجين اللذين هما أصل الماء ونفس النيتروجين الذى تكونت منه معظم أجزاء الهواء

وكذلك الأشياء الأخرى ، ولكن هل الإنسان الحىّ مجرد مجموعة ذرات بسيطة قد رتبت بطريقة غير عادية أم هو شيء آخر غيرها ؟ إن العلماء يعترفون بأنه رغم علمهم بأن جسم الإنسان مصنوع من تلك الأجزاء المادية المعروفة إلا أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا الحياة بتركيب تلك الأجزاء أو بتعبير آخر فإنّ جسم الإنسان الحىّ ليس مجرد الذرات الجامدة ولكنها الذرات والحياة معاً ، فتبقى مجموعة الذرات منظورة بعد الموت ولكن الحياة تنتقل إلى عالم آخر ، ولعله بهذا التفصيل يتضح لنا أنّ الحياة ليست من الأشياء التى تفنى وتزول بل من الأشياء التى تبقى وتدوم ، ومن ثَمَّ نستطيع أن نقبل ونفهم مدى معقولية نظرية الحياة بعد الموت وحقيقتها .

إنّ هذه الحقيقة تنادى بأعلى صوت : إنّ الحياة ليست مجرد تلك التى تبدو للعيان قبل الموت بل يجب أن نبقى أحياء حتى بعد الموت ، وعقلنا يعترف بأن عمر الإنسان وهذا العالم الذى يعيش فيه من الأشياء التى لا بقاء لها ولكن للإنسان وجوداً يبقى بعدهما أيضاً ، عندما نموت لا نموت فى الواقع ولكننا ننتقل إلى عالم آخر لكى نحيا ونعيش هناك ، وحياتنا الحالية مجرد فترة قصيرة من عمرنا المستقر والمنتظم .

ثانياً : العالم الآخر

دعنا نفكر فى هذا السؤال : كيف تكون طبيعة الحياة فى العالم الآخر ؟ يقول رسل الله مجيبين عن هذا السؤال : سيكون هناك جنة ونار وكل إنسان إما أن يدخل الجنة أو يدخل النار ، من أطاع الله

وعمل عملًا صالحاً فى العالم الحاضر ينال ثواب الله ويكون مثواه الجنة ، ومن عصى الله وعمل عملًا سيئاً يلقى فى النار ويعذب فيها .

ولكى نفهم هذا الأمر جيداً ، يمكن أن نلتفت إلى الوقائع حيث نجد أن عمل الإنسان له صورتان :

إحداهما : أنّ هذا العمل يظهر فى هذا العالم كسائر الحوادث الأخرى التى تقع فى الكون .

وثانيتهما : أنّ هذا العمل يقع من الإنسان بإرادته الذاتية .

إننا نستطيع أن نقول عن الحالة الأولى بأنها ليست إلّا أمراً من أمور الحوادث ونقول عن الحالة الثانية بأنها حالة معنوية (إرادية) .

وخذ مثلًا يوضح القضية من زاوية أخرى :

لو مررت تحت شجرة وسقطت حجارة من فوقها صدفة فإنها ستخدش رأسك ، ولكنك مع هذا لا ترد على هذه الشجرة ولا تغضب عليها ولا تهاجمها بل ستمضى إلى بيتك واضعاً يدك على رأسك فى صمت وبدون ردّ فعل ، وعلى العكس من ذلك لو رماك شخص بحجارة متعمداً فأصاب وجهك بخدوش فإنّك ستغضب عليه غضباً شديداً وتعمل من أجل الردّ عليه بالمثل .

لم هذا الفرق بين الإنسان والشجرة ؟

لماذا لا تنتقم من الشجرة وتريد أن تثأر لنفسك من الإنسان ؟

ليس هناك إلا سبب واحد لهذا الأمر وهو أن الشجرة خالية من ذلك الإحساس والشعور الذى يتمتع به الإنسان ، إنّ عملها ليس إلا

أمراً من أمور الحوادث بينما عمل الإنسان يعد من الأمور المعنوية (الإرادية) علاوة على أنه أمر من أمور الحوادث .

ولعلّه مما تقدم يتبيّن لنا أنّ عمل الإنسان له صورتان :

إحداهما : أن تظهر حادثةٌ ما بسبب هذا العمل .

وثانيهما : كون هذا العمل مباحاً أم غير مباح ، وهل أنجز هذا العمل تحت تأثير عاطفة صحيحة أم خاطئة ؟ وهل كان ينبغى له أن يفعل ذلك أم لا ؟ أمّا ما يتعلق بالحالة الأولى فإنّ نتيجتها تظهر فى العالم ذاته ، أما الحالة الثانية فإنّ نتيجتها لا تظهر فى هذا العالم ، وإن ظهرت أحياناً فإنها تظهر فى شكل ناقص تماماً .

إن نتيجة عمل ذلك الذى رماك بالحجر ظهرت فوراً حين خُدش أو تضرّر رأسك ، ولكن الجانب الآخر لعمله وهو أنّه أساء استخدام قوته ليس من الضرورى أن تظهر نتيجته أيضاً ، وإنّه أراد أن يخدش رأسك وقد خُدش ، كما أراد أن يعمل عملًا سيئاً ولكن لم تظهر أيّة نتيجة لإرادته الثانية أمامنا ، فالنتيجة عبارة عن ظهور الإرادة الإنسانية فى الخارج ، ونحن نرى نتيجة الإرادة الإنسانية وهى تظهر أمامنا دائماً فى صورتها الحدثية ، فلا بد إذاً أن تظهر النتيجة الثانية ألا وهى النتيجة المعنوية أو الخلقية للإرادة الإنسانية .

إنّ الآخرة هى مكان ظهور النتيجة الكاملة لهذا الجانب الآخر للعمل الإنسانى ، فكما أنّ أحد جانبى عمل الإنسان يسبب ظهور بعض الأحداث ، فإنّ الجانب الآخر لعمله يخلق أحداثاً أخرى ، ولا فرق بينهما إلّا أنّ حوادث الجانب الأول نراها بأعيننا فى هذا

العالم ذاته بينما أحداث النوع الآخر نراها بعد الموت . كلّ من يعيش في هذا العالم مشغول بتحقيق نتيجةٍ ما لنفسه عن طريق عمله ، وسواء أكان منهمكاً في عمل ما أو عاطلًا فإنه سيخلق ردّ فعل موافقٍ لعمله أو معارضٍ له ، وسوف يبنى الناس آراءهم حسب أخلاقه وعاداته ، وعمل الإنسان يكون مستقيماً أو معوجاً حسب استخدامه لقواه ويثبت حقه أيضاً فيما يبذل فيه جهده .

وخلاصة القول أنّ كلّ شخص ينشىءُ حوله عالماً مطابقاً لعمله وهذا وجه واحد لعمل الإنسان يتعلق بهذا العالم الحاضر ، أمّا الوجه الثانى لعمله من حيث كونه خطأً أو صواباً فإنه يخلق نتيجة تُدّخر لعالم آخر .

فالجانب الخلقى لعملنا ماضٍ فى خلق نتيجة له على نحو مستمر وذلك ما يسمىّ فى مصطلحات الدين بالجنة والنار فكل منا مشغول ببناء الجنة أو النار لنفسه فى كل حين ، وقد وُضِعت الجنة والنار فى عالم الغيب .

والإنسان خُلق فى هذا العالم لمجرد الامتحان والاختبار ، فإذا ماانقضت مدة الامتحان والاختبار وقامت الساعة فإنّ كل شخص سينتقل إلى العالم الذى بناه لنفسه ، وهنا **سؤال يطرح نفسه وهو :**

إذا كانت هناك نتيجة خلقية لعملنا فلِمَ لا تظهر لأعيننا ؟

بناء الدار مثلًا له نتيجة وهى أن يقوم بنيان الدار وهذه النتيجة تظهر أمام أعيننا ولكن الجانب الآخر لهذا العمل هو : هل

كان بناء الدار بطريقة مشروعة أم غير مشروعة ؟ فإن كان لهذا العمل نتيجة فأين هى ؟ أيمكن أن توجد نتيجة فى هذا العالم لا يمكن لمسها أو النظر إليها ؟

إنّ جواب هذا السؤال موجود فى هاتين الصورتين للعمل ، فالصورة الأولى للعمل يراها كل إنسان بل حتى عدسة التصوير الجامدة يمكن أن تراها بوضوح ، أمّا الحالة الثانية (الخلقية) للعمل فهى ليست مما يظهر للعين ، إنها من الأشياء التى نحسّها بدون أن نراها .

ولعل الفرق بين صورتى العمل الإنسانى يشير بوضوح إلى إمكانية ظهور نتائجهما ، إنها إشارة صريحة إلى أن نتيجة الصورة الأولى للعمل ينبغى أن تظهر فى هذا العالم الحاضر الذى نراه بأعيننا ، ونتيجة الصورة الثانية للعمل نراها فى ذلك العالم الغائب عن أنظارنا الآن ، فكأن الذى تظهر نتائجه هو الذى يظهر فى الواقع أيضاً .

إنّ حديثنا هذا ليس حديثاً عن إمكانية وقوع هذا الأمر على المستوى العقلى فحسب ، أى ليس حديث الإمكان العقلى فقط ، بل إنّ دراسة الكون أيضاً تُنبئنا أنّ النتيجتين تقعان بالفعل ، سواء فى ذلك النتيجة التى نراها بعد الحدث فوراً أو تلك النتائج التى لا تبدو لأعيننا إلا أنها توجد كحقيقة ثابتة ، فوجود أمثال هذه النتائج غير المرئية فى الكون يشير بوضوح إلى إمكان وجود نتائج غير مرئية أخرى مثلها أيضاً .

إنّ بناء الكون يقرّ بوجود أمثال هذه النتائج فى داخله ، خذ

الصوت مثلًا : إنك تعلم أنّ الصوت عبارة عن موجات لا يمكن أن تُرى بالعين وحين نحرّك ألسنتنا للكلام فإن حركتها تنشىء موجات فى الهواء نسميها (الصوت) فالصوت صورة غير مرئية تحدث فى الهواء بسبب حركة ألسنتنا ، وكلّما يتكلم الإنسان يظهر صوته فى شكل موجات ويبقى بصورة دائمة حتى إن العلماء يرون أن كل صوت أخرجه أىّ إنسان قبل آلاف السنين وكلّ حديث أو خطبة أُلقيت من قِبَل إنسان ما هى موجودة فى شكل موجات فى الأثير ، وإن كنا لا نرى تلك الأصوات ولا نسمعها اليوم إلّا أنّه إذا توفرت لدينا أجهزة تستطيع التقاطها فإنّه يمكن إعادتها فى شكلها أو صورتها الأولى فى وقت ما .

إننا نستطيع أن نفهم من خلال هذا المثال قضية عالم الآخرة بشكل واضح فكما يوجد غلاف للهواء حولنا ترتسم فيه كلّ أصواتنا بعد خروجها من أفواهنا مباشرة ، ونحن لا نرى الهواء ولا نرى ارتسام أصواتنا ، فكذلك وبنفس الأسلوب يحيط بنا العالم الأخروى من الجهات الأربعة ، والذى يتمّ فيه تسجيل نوايانا وإرادتنا بصورة دائمة ومستمرة ، ولا تزال أعمالنا معروضة على شاشة العالم الأخروى وسوف تظهر لنا بعد الموت .

إذا وضعت الإبرة على اسطوانة مسجلة فإن لوحتها الصامتة ستنطق فوراً كما لو كانت تنتظر من يضع الإبرة عليها وستبدأ فى إخراج أصوات كانت بداخلها ، كذلك الحال بالنسبة لاسطوانة سائر أعمالنا فهى فى طريق الإعداد والتسجيل ، وإذا صدر أمر مالك الكون ظهرت كافة الاسطوانات أمامنا وحينئذ يقول الإنسان بعد أن

يراها ويستمع إليها : ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها** ﴾ الكهف : (49) أى أنه كتاب عجيب هذا الكتاب الذى حفظ وسجّل كل أعمالنا دون أن يترك منها شيئاً .

كلمـــة أخيـــرة

والآن أعيد أيّها القارىء الكريم إلى ذهنك ماذكرته فى السطور السابقة ، إنّ حياتك حياة مستمرة وطويلة للغاية وليس الموت حدّاً نهائياً لهذه الحياة ولكنه بداية عهدها الثانى.

إنّ الموت يقيم حدّاً فاصلًا بين رحلتى حياتنا ، ولتوضيح ذلك نأتى بهذا المثال : إنّ المزارع يزرع محصولًا ويبذل فيه مساعيه ويستثمر فيه أمواله حتى ينضج المحصول ثم يحصده لكى يحصل على غلته ويدبّر به شئونه الغذائية الأخرى لسائر أيام السنة ، فحصاد المحصول هو نهاية عهد وبداية عهد ، كان عليه قبل الحصاد أن يزرع المحصول ويرعاه ثم لا يبقى له بعد ذلك إلّا أن يحصل على ثماره ويقضى بها حاجته ، وكان عليه أيضاً قبل الحصاد أن يبذل كل مافى وسعه وأن ينفق أمواله ، فلا يبقى له بعد الحصاد إلّا أن يحصل على نتائج مجهوداته وينتفع بغلّته . وينطبق نفس الأمر على حياتنا أيضاً إننا مشغولون فى هذا العالم بزرع محصولنا للآخرة فلكلّ منّا مزرعة فى الآخرة يزرعها أو يتركها بدون زراعة ، ويتركها بعد زرع البذور فيها أو يسهر عليها ويرعاها على نحو مستمر ، يزرع فيها الأشواك أو الأزهار والثمار ، يُوظّف جميع قواه لتحسين هذه المزرعة أو يضيع أوقاته فى أمور تافهة أخرى

لا علاقة لها بالمزرعة . إن مدة نضج المحصول تمتد إلى الوقت الذى يدركنا فيه الموت والموت هو يوم حصاد هذا المحصول ، وعندما نغلق أعيننا فى هذا العالم تتفتح فى العالم الآخر ، وهناك تظهر أمامنا مزرعتنا التى أعددناها بأعمالنا فى الحياة التى قضيناها فى هذا العالم .

والجدير بالذكر أنه لا يحصد يوم الحصاد إلّا من زرع قَبلهُ ولا يحصد إلّا ما زرعه فى مزرعته ، كذلك لا نجد كلّ شخص فى الآخرة إلا المحصول الذى كان قد زرعه فى هذا العالم قبل الموت ، فكل مزارع لا يجلب إلى بيته من الغلة إلّا بقدر ما بذل من جهد ولا يأتيه إلّا مازرعه ، كذلك لا يجد الإنسان فى الآخرة إلّا مقدار جهده وسعيه ولا يحصل له إلّا الذى سعى لأجله ، فهناك : ﴿ ... **ليس للإنسان إلّا ما سعى** ﴾ النجم : (39) .

إنّ الموت هو الإعلان النهائى لانتهاء مدة السعى والجهاد ، وليست الآخرة إلا المكان النهائى الذى يرى فيه الإنسان نتيجة مساعيه ، ولن تتاح للمرء فرصة أخرى للسعى بعد الموت ، وإنّ حياة الآخرة حياة أبديّة لا نهاية لها ، كم كان هذا الواقع مهماً لو أدرك الإنسان هذه الحقيقة قبل الموت ، لأن إدراك ذلك بعد الموت لا يُجدى شيئاً !

إنّ الانتباه بعد الموت لا يعنى إلّا أنْ يتأسف الإنسان على فداحة خطئه فى الماضى الذى لا يمكن تداركه حينئذ .

إنّ الإنسان غافل عن المصير الذى ينتظره ، فالأيّام تجرى بسرعة كبيرة لتبلغ به إلى ذلك الوقت الذى هو وقت حصاد المحصول ، إنه

مشغول فى الحصول على المنافع الدنيوية ويظن أنّه يعمل عملاً مثمراً ولكنه فى الحقيقة يضيّع أوقاته الثمينة .

إنّ أمامه فرصة عظيمة يمكن أن يستغلّها ليصنع لنفسه مستقبلاً زاهراً ، ولكننا نراه يلعب بالحصى ، إنّ ربّه يدعوه إلى جنته التى أعدّها لتكون مكاناً للراحة والعزة الأبدية ولكنه لا يزال منغمساً فى اللذات الكاذبة التى لا تدوم ، إنّه يظن أنّه فى طريق الكسب والمنفعة ، والحقيقة أنّه فى طريق الضياع ، إنّه يظنّ بعد بناء دار فى هذه الدنيا أنّه يقيم حياته على أسس مستقيمة ومتينة ، والحقيقة أنّه يبنى جدران الرمال التى لا تُبنى إلّا لتنهار .

اعرف نفسك أيهّا الإنسان ...... ماذا تفعل ؟
وماذا ينبغى لك أن تفعل ؟

الدعـوة إلى الله

ماهو الهدف من خلق الإنسان على وجه الأرض ؟ وماهى الخطة الإلهية من وراء إرساله عليها ؟ إذا تفحصنا القرآن وجدنا الإجابة واضحة بيّنة ألا وهى : أن القصد من ورا ذلك كله هو ابتلاء الإنسان واختباره ، يقول الله تعالى : ﴿ **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ...** ﴾ الملك : (2) .

إنّ هذا الاختبار هو أمر فى غاية الخطورة ، إذ إنّ قضيّة الجنة والنار سيتم إبرامها بناء على هذا الاختبار الحاسم ، ولخطورة الأمر وجديته فإنّ الله قد وضع ترتيباً لإحاطة الإنسان بالعلم حول خطة الله

من وراء الخلق (Scheme Of things) وقد صاغ الله فطرة الإنسان فى شكل خاص بحيث تقدّم شهادة داخلية على هذا الأمر ناهيك عن المظاهر الطبيعية التى تظهر فى آفاق هذا الكون الفسيح ، والتى تقدّم شهادة صامتة على هذا الأمر أيضاً[1] ومن جهة أخرى فإنّ الله قد رتب أمر اصطفاء الرسل والأنبياء من بنى البشر أنفسهم مزوداً إياهم بعلم الحقائق مباشرة عن طريق الملائكة المطهرين ، وأمرهم بأن يطلعوا الناس على الخطة الإلهية من وراء الخلق ، ويعلنوا عنها بلغة مفهومة ومدركة ، ويجعلوا إرادة الله أمام عباده شيئاً مألوفاً .

ويتضح لنا ــ من خلال القرآن ــ أن جميع الرسل المصطفين كان عندهم هذا الأمر وهو الرسالة المشتركة بينهم ليس إلا ، وكانت مهمتهم الأساسية هى أن يحيطوا البشر المعاصرين لهم بهذه الخطة الربانية لئلا يكون للناس حجة فى الآخرة بعد الرسل بأنه لم يخبرهم أحد عن الحقيقة : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ...** ﴾ النساء : (165) .

القنبلة الموقوتة :

إذا كنت على علم بأنّ هناك قنبلة قد وضعت داخل أحد المبانى ، وهى على وشك الانفجار ، لا يفصلها عن ذلك سوى خمس دقائق . ترى ما الذى ستفعله فى تلك اللحظات الحرجة ؟ إنك

---

(١) المزيد من التفاصيل فى كتاب (الإسلام والعصر الحاضر) و (الإسلام يتحدى) .

سوف تركزّ جل محاولاتك على إعلام كل من يوجد فى داخل المبنى بخطورة هذه الحقيقة وجديتها وبأنها ستقع حتما ، وفى مثل هذا الوضع الحرج سوف لن تعبأ بأمور أخرى مهما كانت هامّة فى ظاهر الأمر ، أن الأمر نفسه ينطبق على عالم الدنيا أيضاً ، إذ إن العالم بأسره يقف على قنبلة إلهية موقوتة ألا وهى القيامة . إنّ القيامة بدون شك هى لحظة حرجة وذات خطورة قصوى بالنسبة للإنسان الذى سيقبل عليها ، وهى آتية لا ريب فيها ، ويمكن أن نفاجأ بها فى أىّ لحظة ، ولا أحد يعلم موعد قيامها إلا الله .

إن هذا الوضع المدهش والمحيّر للقيامة يجعل الإنسان أمام خطر داهم ، مما يقتضى منه التزوّد بمعلومات كافية حولها ، فليس للإنسان مشكلة أبلغ صعوبة منها ، فيتوجب عليه إذن أن يكون يقظاً دائماً ، لأنها ربما تظهر أمامه فى أى لحظة فى صورة انفجار هائل وعظيم .

هذا هو السبب الذى جعل القرآن يعبّر عن الداعى بالمنذر ، وعن الدعوة بالإنذار ، أى الإنذار من اليوم الرهيب المروّع . وورد فى السنة أن النبى ﷺ كان إذا خطب الناس وتعرض إلى ذكر تلك اللحظة الحرجة ، يبدو وكأنه ينذر من هجوم عسكرى مفاجىء (كأنه منذر جيش) فما هو الأسلوب الذى كان يستخدمه النبى — ﷺ — فى هذا الشأن ؟ يتضح من خلال الخطبة التى خطبها عليه الصلاة والسلام عقب نزول الأمر القرآنى : ﴿ **قم فأنذر** ﴾ المدثر : (2)

« روى البخارى : حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبو معاوية حدثنا

الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى — ﷺ — خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى : ياصباحاه . فاجتمعت إليه قريش فقال : أرأيتم إن حدثتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى قالوا : نعم قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقام أبو لهب ينفض يديه وهو يقول تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا .

هذا هو أسلوب الخطاب الذى استخدمه النبى — ﷺ — فى الدور المكي ، وهو نفس أسلوب الخطاب الذى يستخدمه فى الدور المدنى أيضاً ، وقد أورد ابن هشام فى سيرته[1] أول خطبة ألقاها النبى — ﷺ — أمام الناس بعد وصوله إلى المدينة ويظهر لنا من خلالها نفس الأسلوب الأخروى الذى كان قد اختاره النبى — ﷺ — فى الطور المكى .

والواقع أن الإنسان إذا أحسّ بجدية قضية الآخرة فإنه سيعدّ ماعداها من القضايا هباء منثوراً مهما بلغت ضخامتها وكبرها ، وهو لن يعبأ بها بل سيعرض عنها إعراضاً . وهذا هو شأن الأنبياء . إنهم يرون الآخرة رأى العين ، لذا فإنها تصبح أكبر وأعظم شىء فى نظرهم ، وينذرون الناس ويحذرونهم من خطرها . وهذا الإنذار هو نقطة البداية والنهاية فى رسالتهم .

---

(١) الجـزء الثـانى .

ختم النبوة :

إنّ النبى — ﷺ — كان آخر أنبياء الله فى الأرض ، وأصبح الدين بعده محفوظاً للأبد ، إذ لا نبى بعده حتى يوم القيامة ، وهذا الاعتقاد هو ما يسمى بختم النبوة .

إن ختم النبوة — ببساطة — لا يعنى نهاية حلقة النبوة وكفى ، بل إنه فى الأساس مؤشر على نوعية جديدة من مهام النبوة ، أى أن مهمة تبليغ رسالة الله التى كانت تتمّ من قبل على مستوى الأنبياء والرسل ستتمّ الآن وتستمرّ فى تسلسلها على مستوى أمة النبى — ﷺ . إن المراد الأصلى من عقيدة ختم النبوة ، بالنسبة للأمة المحمدية ، هو أنها بعد ختم النبوة تكون فى مقام النبوة ، ومن ثمّ يتعين عليها أن تكمل تلك المهمة الدعوية التى كان يبعث من أجلها الرسل .

وقد فهم المسلمون المعاصرون معنى ختم النبوة بشكل خاطىء حين اعتقدوا أنها تعنى إذا قام رجل مختل العقل بدعوى النبوة ، فهم على استعداد لمقاومته ونقده أو الخوض معه فى مناظرات على أقل تقدير . بينما فى حقيقة الأمر فإنّ هذه البحوث والمناظرات وهذا الجدال لا يمّت بأية صلة إلى عقيدة ختم النبوة ، إذ المسئولية التى تلقيها عقيدة ختم النبوة على عاتق المسلمين هى اعتبار جميع الأمم بمثابة المدعو ، وتبعاً لذلك ينبغى عليهم أن يصرفوا جل طاقاتهم وجهودهم فى سبيل تعريف كافة الأمم بالدين الإسلامى الحنيف .

إن الخوض فى القتال ضد شخص منكر للنبوة أو جماعة منكرة

لها ، ليس من عقيدة ختم النبوة فى شيء ، وليس هو من المهام الملقاة على عاتق المسلمين ، إنما تقتضى عقيدة ختم النبوة — فى الواقع — إنهاء كل أنواع الصراع والقتال ، وذلك لكى ينشأ جوّ معتدل قوامه التسامح والعفو بين المسلمين والأمم الأخرى ، حتى يمكن بذلك تعبيد الطرق لإبلاغ دين الله الحنيف ، والمسلمون ينبغى أن تنشأ لديهم نظرة صائبة تحمل فى طياتها تصوراً بأنهم حملة دين الرحمة ، ولا يظنوا عكس ذلك بأنهم أمة محاربة فى جوّ تسوده روح المغامرة والقتال ، إن مثل هذا التصور الصائب والعميق ينبغى أن يأخذه المسلمون بعين الاعتبار ولا يبخلون بشيء فى سبيله ولو اقتضى منهم التضحية ببعض حقوقهم المشروعة .

سـؤال :

إن من يطالع سيرة الرسول وأصحابه يجد أنهم قد تبنوا فى بداية انطلاقهم أسلوب الإنذار والتبشير الخالصين لمدة غيرة قصيرة ، إلا أنهم — كما يبدو — فى الدور اللاحق قد انشغلوا فى ساحة الحرب والفتوحات ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : ماهو وجه التوافق بين هذين الطورين أو بالأحرى بين هذين المنهجين ؟ إننا نجد البعض قد أخطئوا فى فهم العلاقة بين هذين الطورين فاعتبروها علاقة النشوء والتطور ، أو البداية والنضج ، ولكن الحق هو أن العلاقة القائمة بينهما هى علاقة الحقيقة والإضافة ، ويعنى ذلك أن النبى — ﷺ — باعتبار وظيفته ورسالته الأساسية كانت مهمته الحقيقية هى ما يضطلع به بصفته المنذر والمبشر ، أما الأعمال الأخرى التى تمت

بواسطة النبى — ﷺ — وأصحابه فما هى إلا أعمال إضافية وليست من صلب الرسالة ، أى أنها أعمال قد ألحقت بمهمته النبوية وأدخلت ضمنها ، إلا أنها لا تتسم بسمات مهمة الرسالة الأساسية .

إن رسالة النبى — ﷺ — هى نفس رسالة الأنبياء السابقين ، ودين التوحيد الذى جاء به هو نفس الدين الذى جاء به الأنبياء الآخرون : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ... ﴾ الشورى : (13) ، وإن القيام بإظهاره وإبلاغه هى المهمة والوظيفة الأصلية التى أمر بها النبى بصفته رسولًا .

ويذكر القرآن فى إحدى آياته بعض الأنبياء ، ثم يعقب بقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ... ﴾ الأنعام : (90) . وإذا كانت رسالة الأنبياء بما فى ذلك نبينا — ﷺ — هى رسالة واحدة مشتركة ، فإن صلب رسالة النبى — ﷺ — هى القاسم المشترك بين كافة الأنبياء على اختلافهم ، فإذا ما وجدنا شيئاً قد تميز به النبى — ﷺ — دون غيره من الأنبياء فإن ذلك يعد عنصراً إضافياً قد أضيف إلى مهمته النبوية الأصلية ولا يصح أن نعده من صميم مهمته الأساسية .

والحرب أو القتال يدخل ضمن ذلك العنصر الإضافى ، وقد شرع — طبقاً للقرآن — لاستئصال الفتنة وإزالتها ، وهو ليس مهمة مستقلة ومطلقة بل نشاط مؤقت قد شرع لمواجهة الأنشطة التخريبية التى قام بها الفريق الآخر ، ولقد قام النبى وأصحابه بهذا الدور على أكمل وجه وبلغوا به إلى غاية الكمال .

استئصال الفتنة :

جاء فى القرآن فى موضعين مع فارق طفيف بينهما : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ، ويتبلور من ذلك أن الحرب التى خاضها النبى ــ ﷺ ــ وأصحابه لم تكن حربا بالمعنى المعروف ، بل إنها كانت نوعاً من العمليات العسكرية (Military Operation) التى تستهدف استئصال الفتنة من على وجه الأرض ، وقد انتهت تلك الفتنة فلم تعد هناك حاجة لتكرار مثل هذه العملية ، وقد كان ذلك واضحاً فى كلام عبد الله بن عمر ، حيث روى : « عن نافع عن بن عمر قال : أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ــ ﷺ ــ فما يمنعك أن تخرج فقال : يمنعنى أن الله حرم دم أخى . قالا : ألم يقل الله ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله » [تفسير ابن كثير الجزء الأول صفحة 227].

إن الفتنة كلمة مرادفة للاضطهاد والظلم (Persecution) والمقصود به ذلك القهر السياسى الذى اتسمت به الامبراطوريات فى أرجاء المعمورة فى الزمن القديم ، زمن الامبراطوريات التى كانت تتمتع بحرية مطلقة (Empirical absolutism) حيث كان الامبراطور فى منزلة الإله ، من حقه أن يفعل ما يشاء غير عابىء بما إذا كان ذلك موافقاً للمصلحة العامة أم لا ، وبذلك سادت فى ذلك العصر عقيدة تذهب إلى أن الملك معصوم من ارتكاب الأخطاء : (The King Can Do No Wrong) .

هذا المبدأ العقائدى كان قد أعطى الملوك مزيداً من الدفع لبسط سلطتهم المطلقة والطاغية على رعاياهم ، وبذلك يكون المجتمع قد انقسم إلى طبقتين اثنتين : طبقة الملوك ، وطبقة الرعايا . وتحت هذا القهر السلطوى والحكم الطاغي نشأت بوادر الفساد فى الأفق ، وكان من أشدّها وأعظمها فحشاً ماكان متصلًا بتبليغ الدين ، حيث أصبح ذلك أمراً عسيراً ، لأن التوحيد يعنى الإعلان عن المبادىء الإنسانية الخالدة ، والتى من بينها : أن الكبرياء لله وحده ، وأن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، وليس لأحد حقّ فى التسلط على الآخرين . ولا ريب أن مثل هذه الدعوة ــ دعوة التوحيد ــ قد قامت على أنقاض ذلك النظام الامبراطورى القديم ، ولهذا فإنها قد استخدمت قوة القمع السياسى لقمع دعاة التوحيد .

إنّ مهمة إضافية قد أسندت إلى دعوة التوحيد التى اضطلع بها النبى وأصحابه ألا وهى إنهاء ذلك القهر السياسى القديم لإزالة العراقيل من طريق الدعوة ، وتهيئة البيئة لينشأ فيها عالم التوحيد ، ويسود مناخ الأخوة الإنسانية .

وفى عصر النبى ــ ﷺ ــ كانت هناك امبراطوريتان اثنتان : الامبراطورية الساسانية ، والامبراطورية البيزنطية ، وقد فرضتا سيطرتهما على معظم بلاد العالم آنذاك ، كما اتسمتا بالقهر السياسى فى صورته القديمة ، ومن ثمّ أصبح بقاؤهما يعنى بقاء القهر السياسى ، القديم ، وإزاحتهما تعنى إزاحة القهر القديم ، إلا أنه بفضل التضحيات الجبارة التى قدّمها الرسول وأصحابه قد انكسرت شوكة

ذلك القهر السياسى ، وليس عملهم ذلك من نوع (الفتوحات) كما هو معروف لدينا ، بل إنه كان عملية جراحية ربانية ، أجراها أناس مثاليون بكل المعايير الإنسانية .

إن انطلاقة الحرية والديمقراطية والمساواة كانت نتيجة لهذا الانقلاب الذى غير مسار التاريخ . ولو لم يقم أصحاب النبى بتلك العملية فما أظن أن دور الحرية كان سيظهر إلى حيز الوجود . ولقد اعترف المؤرخون الغربيون بهذا الواقع ، خاصة المؤرخ الفرنسى هنرى برين (Henri Pirenne) ولم يتوقف عند ذلك الحد ، بل إن تحليلاته التاريخية قد أعطت هذه الواقعة طابع مدرسة فكرية مستقلة فى أسسها ومقوماتها ، وله كتابان يعالج فيهما هذا الموضوع : كتابه (تاريخ أوروبا) (History Of Europe) وكتابه (محمد وتشارلمان) (Mohammad and Charlemagne) .

وقد طرح الأول نظرية خلاصتها : أن الانفصال الأساسى بين العالم القديم والعالم الجديد كان قد تحقق — فى الواقع — عن طريق الفتوحات العربية ، حيث قال : « إن الإسلام قد غيّر وجه الأرض وأزاح النظام التقليدى للتاريخ »

Islam Changed the Face Of the globe. The traditional order Of history Was overthrown (p. 46).

إن قول ابن عمر الذى سلف ذكره يقدّم شرحاً وافياً وعميقاً لهذا الموضوع ، يتبلور من خلاله أن الفتنة المذكورة فى الآية القرآنية

ليس المقصود بها فتنة المسلمين ، بل المقصود بها فتنة الشرك ، والمراد استئصال تلك الأنظمة التى تتسم بالقهر السياسى من النوع القديم وقد تحقق ذلك بمدد من الله تعالى ، فلم تعد دعوة التوحيد ولا إعلان الحرية يلقيان أية عقبة فى طريقهما كتلك التى كانت سائدة فى أرجاء المعمورة والتى ظهرت تحت قناع تلك الأنظمة السياسية .

ولو صرفنا هذه الفتنة إلى الحكام المسلمين ، وأطلقنا على فسادهم أنه فتنة ، فإن ذلك سيدفعنا إلى مقاومة هؤلاء الحكام والإطاحة بهم بكل قسوة ، كما أنه سيفتح الباب على مصراعيه أمام الفتنة الجديدة ، وسينتج عن ذلك أن الحكام سوف يعدّون الدعوة الإسلامية جبهة معارضة سياسية ، وبالتالى يلزم قمعها وإخمادها بهدف البقاء فى السلطة وهكذا تعود الفتنة من جديد .

ستـــار التاريـــخ :

سبق أن قلنا إن المهمة الأساسية للنبى ــ ﷺ ــ هى نفسها التى كانت للأنبياء السابقين ، وهى الدعوة إلى الله وقد تمت هذه المهمة حين أوصل النبى ــ ﷺ ــ الدعوة إلى مرحلة إكمال الحجة أمّا ماقام به النبى ــ ﷺ ــ من حرب وفتوحات فقد كانت عنصراً إضافياً (Relative part) إلى رسالته ، ولم تكن عنصراً حقيقياً (Real part) .

وكانت بداية انطلاق هذا العنصر الإضافى (الحرب والفتوحات) منذ هجرته ــ ﷺ ــ إلى يثرب ، واستمر إلى أواخر

أدوار الصحابة وقد تم تحت هذا العنصر من رسالته فتح معظم مناطق آسيا وإفريقيا ناهيك عن الدول العربية ، وانهيار سلطنة الروم وفارس ، وقد كان لهذه الوقائع الحربية منها والسياسية أبعد وأعمق الأثر فى نفوس الأجيال التالية ، حيث أصبحت مسيطرة على عقولهم وأفكارهم ، حتى إنهم نسوا أن هذه العملية إنما هى عنصر إضافى قد أضيف إلى مهمة الرسالة ، وليس عنصراً حقيقياً فيها .

كما نرى أن المؤلفات الإسلامية التى نشأت فى الأدوار التالية ، قد تأثر معظمها بتلك الوقائع إلى حدّ بعيد لنأخذ الأحاديث مثلًا على ذلك : تلك التى تم تدوين وتبويب معظمها فى عصر تابعى التابعين ، فلا تجد كتاباً من كتب الأحاديث يخلو من باب الجهاد ، وفى المقابل لا تجد أى كتاب من كتب الحديث المشهورة قد عنى بالدعوة والتبليغ أو أقام لها باباً مستقلًا بها أو جمع أحاديث تحت عنوان الدعوة إلى الله .

وكذلك هناك عدد هائل من الكتب تعنى بقضايا الفقه ، وتجد باب الجهاد يحتل فيها كلها دون استثنـــاء مكاناً بارزاً ، ولا تجد فى المقابل باباً فيها يعالج قضية الدعوة والإنذار والتبشير .

وهناك كتب عدة تزخر بها مكتباتنا مما ألف فى القرون الماضية ، قد عنيت بشرح الدين وبيان حكمه ، مثلًا : كتب : عز الدين ابن عبد السلام ــ والغزالى ــ وابن تيمية ــ وابن القيم وغيرهم ممن ألفوا مئات الكتب إلا أنه من الصعب أن تعثر على كتاب من بين هذه الكتب المتراكمة على أرفف مكتباتنا الضخمة مما ألف حقاً فى

موضوع الدعوة إلى الله ، حتى إن الكتاب الذى أُلِف مؤخراً فى أسرار الشريعة وهو (حجة الله البالغة) نجد فيه كل الأبواب المتنوعة إلا أنه خاو من ذكر باب الدعوة إلى الله .

ولا يعنى ذلك أن الدعوة الإسلامية قد اختفت أو انمحت خلال القرون الماضية ، ولكن الشىء الذى اختفى وانعدم هو الشعور والإحساس بالدعوة وليست الدعوة ذاتها . إن الواقع ينبىء بأنّ نشاط الدعوة وعملية تبليغها قد استمر طيلة القرون الماضية دونما توقف ، وهو فى أغلب الأحوال يتم بطريقة تلقائية لما للإسلام من قوة وصلابة ذاتية ، ولم يتم ضمن شعور دعوى أو خطط تبليغية . والحقيقة أن القرون الماضية قد خلت من الشعور الدعوى الحقيقى ، إلا أن عملية الدعوة ظلت مستمرة كواقع حى فى كل لحظة من لحظات التاريخ .

وطبقاً لما أعرفه ، فإن عمر بن عبد العزيز (62 - 101 هـ) هو آخر شخص بعد عصر الصحابة يتمتع بعقلية دعوية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وكما هو معلوم لدينا أن عمر بن عبد العزيز حين قدم إليه عامله تلك الشكوى من الناس الذين يقبلون على الإسلام بشكل هائل ، والذى نتج عنه تدهور ملحوظ فى معدل الخراج ، مما ينذر بنضوب المخزون الاقتصادى لبيت المال ، فإنه فور سماعه لتلك الشكوى عيب عامله ، وقال له : ويحك إن محمداً بعث هادياً ولم يبعث جابياً .

إن هذا الشعور والإحساس بالدعوة الذى نلمسه ونحسه من

مقولة عمر بن عبد العزيز لم يتمكن التاريخ من إعادتها مرة ثانية بعده .

قلت ذات مرة وأنا ألقى خطاباً : إن جدران قصر الحمراء تقف حائلًا بين الإسلام والمسلمين نعم لا شك فى أنها حقيقة مرة فى عصرنا الحاضر ، فالواقع أن تاريخ الفتوحات وإدارة الحكومات كلها قد أصبحت حائلًا أو سداً منيعاً بين الإسلام والمسلمين المعاصرين ، إنها قد حالت دون تمكن المسلمين المعاصرين من رؤية الإسلام فى شكله الطبيعى ، وإن الجانب الأهم الذى تعامى عنه المسلمون هو جانب الدعوة إلى الله ، ولا ريب فى أن القوة الساحرة للإسلام تكمن فى الدعوة ، وهى العمل الوحيد الذى تترتب عليه الفتوحات والغلبة التى وعد بها القرآن بصريح العبارة ، إلا أن أكثر شىء يجهله المسلمون اليوم هو هذا العمل الجاد والثقيل ، وقد وصلت بهم الغفلة إلى حد جعلهم يقومون بأنشطة أخرى متفاوتة يطلقون عليها اسم الدعوة ، ولكن عملًا كهذا لا يجلب لهم الأنعام والمكافأة بل يؤدى بهم إلى نتائج سلبية .

الحاجة إلى الاكتشاف من جديد :

كنت قد قرأت مقالة فى إحدى الجرائد العربية ، وكانت تحمل عنوان (الدعوة إلى الله) وقد أعرب فيها بعض كبار مفكرى العرب عن آرائهم حول موضوع الدعوة . وقد انطلق الكاتب من عدة تساؤلات تتعلق بتجديد مفهوم الدعوة ، فذهب يقول : فما غايات الدعوة ، هل هى إصلاح الفرد أم إصلاح المجتمع والأسرة أم إصلاح

الدولة أم هداية المسلمين إلى الإسلام الصحيح أم هداية غير المسلمين إلى الإسلام ؟ .

وبعد هذه التساؤلات تطرق الكاتب إلى موضوع أعداء الإسلام والمسلمين ، والذى ختم به الصفحات السبعة التى كانت حصيلة المقالة ، لكننى لم أجد بين الباحثين من ذهب إلى أن الدعوة التى وردت فى القرآن تعنى فى الأساس نشر الإسلام بين الأمم الأخرى .

ويتضح من هذا المثال أن المسلمين رغم أنهم يكثرون من ذكر لفظ (الدعوة) ، إلا أنهم يجهلون ــ فى الواقع ــ المقصود من الدعوة ، وقد شمل هذا الجهل كل صغير وكبير من أبناء المسلمين ، وفى مثل هذه الحالة صار لزاماً عليهم أن يكتشفوها من جديد ، إنه أمر قد نسيه المسلمون ، لذا يجدر بهم أن يعيدوه إلى ذاكرتهم مرة أخرى .

ولا شك أن أكبر مهمة يمكن القيام بها الآن هى مهمة إيقاظ شعور المسلمين وتأهيلهم فكرياً ليقدروا على اكتشاف الدعوة من جديد (Rediscover) وهذا الأمر هو من أكبر مقتضيات العصر من الناحية الدنيوية ، كما أنه العمل الوحيد الذى ننال به الفلاح فى الآخرة .

مثال مهاتما غاندى :

لمزيد من التوضيح ، فإننى سأضرب لكم مثال مهاتما غاندى (1869 - 1948) : كانت انطلاقة الحركة التحررية فى الهند سنة 1857

واستمرت حتى 1919 تقريباً ، وكان الأسلوب الذى اختير لتحقيق تلك الغاية هو أسلوب التشدد والتعصب ، ومعلوم أن القوة هى الفيصل فى مثل هذا الأسلوب ، وكانت القوة كل القوة — آنذاك — فى يد الإنجليز ، ولذا فقد أصبح أسلوب التشدد هذا عاجزاً عن عمل أى شيء ، وهذا ما حدث فعلاً فقد ذهبت كل المحاولات دون جدوى وقد اقتحم مهاتما غاندى ساحة السياسة ، وبدأ يقلب الأمر رأساً على عقب ، ويصرخ منادياً بتبنى الأسلوب السلمى من أجل إنجاح الحركة التحررية ، وهو الأسلوب الذى يطلق عليه المؤرخون السياسيون اسم (العملية السلمية) .

ولم تكن هذه المرة الأولى التى يطرح فيها هذا الأسلوب ، بل سبقه كثيرون فى هذا الأمر منهم هنرى تارو (Henry Thoreau) وجان رسكن (John Ruskin) وتولستوى (Tolstoy) وجارجز سوريل (Georges Sorel) إلا أن الفضل الأكبر فى تطبيق هذه النظرية على المستوى العملى ، وتبنيها تبنياً حقيقياً يرجع إلى مهاتما غندى دون غيره .

فقد ابتدع مهاتما غاندى مصطلح العصيان المدنى (Civil Disobedience) وعدم التعاون (Non Cooperation) بهدف دفع الأسلوب السلمى دفعاً حثيثاً إلى مزيد من الفعالية ، وإنجاح هذا الأسلوب كامن فى استخدام الطاقة البشرية مكان الأسلحة النارية ، ومن هذا المنطلق أخرج مهاتما غاندى الناس من بيوتهم وأوقفهم فى الشوارع ، لقد انطلق غاندى من سياسة المقاطعة والإضراب ، ومقاطعة الأجهزة التشريعية والمحاكم ، ومقاطعة الدوائر الحكومية

والمدارس والكليات الحكومية حتى أعلن رفضه إعطاء الضرائب المفروضة عليهم ، مما أسفر عن اعتقال (60) ألف مواطن بسبب رفضهم إعطاء ضريبة الملح سنة 1930 وقد بدأ هذا النوع من الإجراءات منذ سنة 1920 م واستمر حتى سنة 1947 م .

إن القوة الشعبية التى انتظمت خلال هذه الفترة غير القصيرة ، زلزلت الأرض تحت أقدام الحكومة البريطانية ، وأرغمت الإنجليز على ترك الهند سنة 1947 أى بعد الحرب العالمية الثانية . وهكذا أثبت أسلوب مهاتما غاندى جدارته فى إزاحة الإنجليز وإجلائهم ، إلا أنه فى نفس الوقت أسفر عن جانب آخر سلبى ألا وهو رواج العصيان المدنى على نطاق واسع حتى عدت الأعمال الإجرامية من الأعمال القومية المقدسة ، وأصبحت الخطب الساخنة أسلوباً فعالًا ورائعاً ومنبعاً لخلق شخصية بارزة ولامعة بدلاً من التعليم ، كما صار التعلق بالسلطة أمرا مزرياً وتحديها أمراً يجعل المرء بطلاً بين عشية وضحاها ، وكافياً لإبراز صورة البطل على صفحات الجرائد .

إن كل تلك الأمور قد محت معالم وآثار المبادىء السابقة من عقول الناس ، فلم يدركوا أنّ العصيان المدنى كان علاجاً مؤقتاً وليس منهجاً يحتذى به ، ولذا أصبح إعادة اكتشاف القوانين واحترام النظام بين الناس أمراً ملحاً وضرورياً ، وكذلك انتشال المشاعر من تحت الأنقاض ، إلا أنه لم يكن ليتحقق ذلك ، مما جعل تحرير الهند أمراً لا جدوى فيه .

إن مهاتما غاندى ــ حسب اعتقادى ــ هو أول قائد هندى

أحسّ بأبعاد هذه القضية بكل جدية لذا نراه فور إكماله لعملية الاستقلال يخوض محاولات جادة لتهدئة الأوضاع ونشر الأمن ، حتى إنه تقدم باقتراح لحل حزب المؤتمر كحزب سياسى وإحلال حزب غير سياسى مكانه هدفه البناء والتعمير ، إلا أنه فشل فشلًا ذريعاً فى إيقاف فيضان العصيان وإحلال السلام مكانه ، حتى ذهب ضحية تلك الجهود حيث أردى قتيلًا بعد خمسة أشهر من إعلان الاستقلال وذلك فى 20 يناير سنة 1948 .

لقد انطفأت بوادر الآمال الجديدة من أفق الهند مع موت غاندى ، فلم تكتشف الهند تلك المبادىء التى تبناها غاندى فى خضم العملية التحررية السلمية حيث أصبحت الدولة كلها تجرى فى نهر العصيان ، ولم يبق هناك بصيص أمل لتغيير مسارها بعد مرور 50 سنة من الاستقلال .

مثـال اليابـان :

إن الدور الذى أطلق عليه فى تاريخ اليابان بدور (إصلاح ميجى) (Meji Restorstion) كان قد بدأ فى منتصف القرن التاسع عشر . والامبراطور ميجى رجل شغوف بالرقى والازدهار ، كان قد أولى عناية بالغة بالعلوم والصناعات الغربية فى هذا الدور بشكل خاص ، وبدأ الناس يتعاملون مع الإنجليزية واللغات الأخرى ، حتى سافر عدد هائل إلى أوروبا وأمريكا من أجل الدراسة .

إلا أنّ انقلابا آخر قد ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث ظهرت حركة تمرد عرفت باسم السيتسوما (Statsuma Rebellion) كان لها أثر فعّال فى نشأة عقلية جديدة تنادى بأخطار الثقافة الغربية على الأمة اليابانية وهكذا نرى دوراً جديداً قد لاح فى سماء اليابان وهو الدور العسكرى ، حيث وصلت إليها الحركة الفاشية تحت الهيمنة الألمانية واستولت على الجنود فى 26 فبراير 1936 وبدأت تكتسح المفكرين والعلماء المعتدلين وبدءوا ينادون بأن الحرية اليابانية كفيلة بالقضاء على الروح العسكرية (Militaty Spirit) كما بدأ يسود بين الناس بأن بناء القوة العسكرية هو السبيل الوحيد للحصول على الأخلاق الوطنية (National ideal) وبدأ اليابانيون يحلمون بأنهم قادرون على بسط سيطرتهم على القوى العظمى بشكل كامل (188 / 7) .

هذا هو المزاج العسكرى الذى دفع اليابان إلى الدخول فى الحرب العالمية الثانية إلى جانب قوات المحور (Axis Powers) ضد قوات الحلفاء (Allied Powers) فقد أبدت اليابان حماستها الحربية إلى حدّ الجنون ، ونجد مثالًا على ذلك فى قاذفات كامى كاز (Kamikaze Planes) وهى قاذفات للقنابل الصغيرة يهبط بها طيارها فى هدف محدد ، ليتفجر معها فى عملية انتحارية ، فيحدث بذلك خراباً ودمارا جسيمين . إلا أن النجاح لم يحالف اليابانيين ، إذ نزلت بهم الهزيمة الساحقة وزلزلتهم قنبلتان نوويتان أمريكيتان وألحقت أضراراً فادحة فى الأرواح والممتلكات .

إنها حادثة غريبة حدثت بدون أدنى توقع من قبل اليابان ، ولكنّ الأمر الأشد غرابة هو رد الفعل التى قامت بها اليابان إثر تلك الحادثة ، إنها قد أعادت النظر فى الأمور كلها وتناولتها بالتحليل والدقة المتناهية ، كما أنها خضعت للأمر الواقع وآمنت باستحداث خطط لتجنب الحروب وتسيير المحاولات المبذولة على المستوى القومى فى ساحة العلوم والتقنية ، وبذلك تكون اليابان قد اكتشفت من جديد (Rediscovery) أهمية العلوم التى كانت قد جهلتها طَوال السنوات الماضية .

إن هذا الاكتشاف الجديد كان له بالغ الأثر فى تغيير مسار حياة اليابان ، فلم يكد يمر جيل حتى وصلت اليابان إلى أعلى وأرق مراحل التطور الصناعى والعلمى ، الأمر الذى طالما انتظرت تحقيقه عبثاً عن طريق الحروب والنزاعات .

إن ماعبرت عنه بإعادة الاكتشاف (Rediscover) ربما ظهر بصورة جلية ورفيعة فى حياة اليابان .

مسلمو العصر الحديث :

يتضح لنا من خلال مطالعة القرآن والسنة أن الأهمية الأساسية تعزى إلى الدعوة ، أى إيصال رسالة الله تعالى إلى أمم غير مسلمة . إلا أن المسلمين المعاصرين نسوا أو تناسوا هذا الأمر الخطير لسبب أو لآخر ، إنهم فقدوا الأحاسيس الدعوية إلى حدّ أنهم لا يكادون يميزون بين الدعوة ونقيضها ، فأصبحوا يطلقون لفظ الدعوة على

ما لا يمت إلى الدعوة بصلة ، ويكافحون من أجل منافع قومية ويضعون لها عنوان الدعوة ، مثلهم فى ذلك مثل جماعة لا تعبأ بالصلاة فى حين أنها تُفْرِط فى إقامة حفلات لعيد ميلاد النبى ـــ ﷺ ـــ معتقدة أنها بذلك تؤدى فريضة دينية كما تؤدى الصلاة تماماً .

إن غفلتهم هذه قد وصلت إلى آخر مطاف لها ، إذ إنّ الأمر لا يقف عند عدم قيامهم بالدعوة فقط ، بل إنهم نتيجة لفقدانهم الشعور الدعوى قد انشغلوا بأعمال كفيلة بأن تقضى على فرص الدعوة وإمكانياتها . والدعوة تقتضى ألا يكون هنالك أىّ نوع من الصراع ـــ مادياً كان أو قومياً ـــ بين الداعى والمدعو ، لأن الصراعات المادية أو القومية التى تقوم بين الداعية والمدعو تكدر صفو الدعوة ، ومن ثمّ يتوجب على الداعية أن ينهى كافة أعمال الصراع بينه وبين المدعو حتى يتسنى له أن يسوى الطرق ويعبدها للقيام بأنشطة ومهام الدعوة .

لكن واقع المسلمين المعاصرين هو أنهم نتيجة لفقدانهم الشعور الدعوى قد انصرفوا إلى صراعات سياسية ومادية وقومية مع الأمم المدعوة ، وهذا النوع من الصراعات مهما تراءى للمسلمين بأنه ذو فوائد ومنافع إلا أنه بمثابة السم فى الدسم بالنسبة إلى الأنشطة الدعوية وحينئذ يصبح اللاشعور الدعوى الذى يتمتع به المسلمون جريمة عظيمة لذا فالمسلمون ملزمون بإنهاء كافة أنواع النزاع مع الأمم المدعوة وإلا تورّطوا فى مخالفة قانون الله ، كما هو شأن اليهود الذين تهاووا فى قعر الهلاك ، وأصبحوا بمعزل عن رحمة الله إن الأمر الذى

ينبغي أن يُعنى به المسلمون أولًا وقبل كل شيء هو أن يعملوا جادين من أجل إيقاظ مشاعر وأحاسيس الدعوة فى نفوسهم ، وأن يبعثوا فيها الحياة والديناميكية من جديد .

ماهى الدعوة ؟ وماهى المهام التى تنضوى تحتها ؟

وكيف أن نصرة الله تتوقف أولًا وأخيراً على القيام بأنشطة دعوية ؟ إن مثل هذه الأمور قد انمحت من أذهان المسلمين ، وأصبحت نسياً منسياً ، والمسلمون كلهم عامتهم وخاصتهم راحوا ضحية عدم الشعور الدعوى ، إنّ أكبر وأهم عمل يمكن أن يقوم به المسلم المعاصر هو إيقاظ ذلك الشعور أو الإحساس المفقود ، وأن يكتشفه من جديد (Rediscover) أما الأعمال الثانوية الأخرى فهى تبع لذلك الأمر ، كما أن بقاءها يتوقف على حيوية ذلك الشعور الدعوى فحسب .

على نقيض الواجـــب :

إنّ ملكاً أرسل بعثة إلى منطقة منكوبة ، أصابها القحط ، وقد زودهم بالمال وكافة الحاجات الضرورية ، ليقوموا بتوزيعها فى تلك المنطقة المنكوبة ، ولمّا وصلت البعثة إلى المنطقة خاضوا صراعاً مع سكانها ، مما أسفر عن تشبثهم بكل ما زودهم به الملك ، لقد أعلنوا شكواهم واحتجاجتهم بهذه العبارات : إنهم لم يحسنوا استقبالنا ، ولم يقدموا لنا بيتاً لنسكنه ، وإن أطفال القرية قد أساءوا معاملتنا ... وغير ذلك من عبارات الاحتجاج .

وحين علم الملك بالأمر اشتد غضبه وسخطه على أعضاء بعثة الإنقاذ وأصدر حكماً بإلقاء القبض عليهم وسجنهم ، وقال لهم : إنى قد أرسلتكم إلى المنطقة المنكوبة لتقوموا بعملية الإنقاذ وليس لخوض حرب وصراع ضدهم . وعلى أى أساس تطالبونهم بأن يعاملوكم معاملة فائقة ، نفترض أنهم أساءوا معاملتكم ، رغم ذلك فإنكم ملزمون بأن تقدموا لهم كل ما زودتكم به بكل صدق وأمانة ، ثم ترجعوا إلىّ بكل هدوء وطمأنينة لتحصلوا على مكانة لائقة من قبلى ليس من قبلهم ولو قمتم بأداء مهمتكم رغم إساءتهم لكم لثمنت جهودكم وكافأتكم أضعافاً مضاعفة ، لكنكم حين تورطتم فى المطالبة بحقوقكم وبدأتم تفكرون فيها ، فلن أقدم لكم شيئاً سوى السجن ، اذهبوا إلى السجن وذوقوا جزاء عملكم .

إن هذا المثال ينطبق تماماً على المسلمين المعاصرين ، إذ إن الله تعالى قد أعطاهم الكتاب والهداية وكلفهم بأن يبلغوا الآخرين بذلك ، ويقوموا بإيصال رسالة الله إلى عباده إلا أن المسلمين على نقيض ذلك ، خاضوا أنواعاً من الشكاوى والاحتجاجات ضد الأمم المدعوة ، وأشعلوا نيران الحرب الضارية معهم ، مما أسفر عن بقاء رسالة الله تعالى محفوظة داخل بيوت المسلمين بدل أن يقوموا بتبليغها إلى الأمم الأخرى ، وبدأ التناحر والتخاصم بينهم ، فى صورة احتجاج شفوى حيناً ، وفى صورة قتال حيناً آخر .

إن المسلمين بعملهم هذا يستحقون عقاباً جزاء ما يعملون ، كما هى الحال بالنسبة للبعثة التى أرسلها الملك لإنقاذ المنطقة المنكوبة ، إلا

أن عقاب المسلمين وجزاءهم سيكون أشد وأنكى ، لأن بعثة الإنقاذ إنما كانت مكلفة بحل أزمة مؤقتة بينما المهمة التى أنيطت بالمسلمين هى فى غاية الخطورة ، فهى مهمة لإنقاذ الناس من العذاب الأليم الذى لا نهاية له ، لذا فإن جرم المسلمين هو أعظم وأكبر من جرم بعثة الإنقاذ والفارق بينهما باعتبار المأزق الذى يؤول إليه كلا الفريقين ، فمأزق البعثة محدود وله نهاية بينما مأزق المسلمين غير محدود وليس له نهاية .

إن الدعوة إلى الله هى بمثابة التمثيل عن الله بين عباده ، وهى أمر يتناوله الداعية باعتباره مسئوليته الوحيدة دون أن يطمح إلى أية حقوق ، والداعية يعطى ثم يأخذ أجره من الله ، وحين يؤذيه الناس يصبر ويثابر من أجل الله ، وهو يتلقى الحرمان من قبل الناس ، إلا أنه يبقى جاداً فى مهمته المقدسة دون أن يعتريه أىّ وهن .

إن الداعية يبذر بذوره فى الدنيا ليجدها فى الآخرة وقد أصبحت شجرة يانعة شامخة ، وأنشطة الدعوة لا تنبت إلا فى أرضية الصبر ، فالذين لا يستطيعون الصبر هم غير قادرين على القيام بالدعوة ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ .
فصلت (35)

خاتمـــة

يولد فى العالم كل يوم مئات الألوف من الناس ، ويموت مئات الألوف من الناس ، يأتون إلى الدنيا بعيون مغلقة ، ولا يعرفون شيئاً عن هدفهم فى الحياة ، وما الذى يجب عليهم أن يعملوه فيها ، ثم يفعلون ما يعتقدون أنه صواب أو خطأ ، ثم يغلقون أعينهم مرة ثانية ويعودون من حيث أتوا ، لا يعرفون إلى أين يذهبون ، وماذا سيكون شأنهم فيما بعد ؟!! .

هذا هو الخطر العظيم الذى يواجه الجنس البشرى ، فمثل الدنيا كمثل قطار يمضى بسرعة كبيرة على قضبانه لا يدرى ماذا أمامه وفى طريقه قنطرة محطمة يصل إليها فينقلب ، وهكذا يتعرض المسافرون فيه سواء من كان داخله أم فوقه ، وسواء من كان يركب فى الدرجة الأولى أم الثانية ، إلى نهاية فظيعة ، ويواجهون جميعاً نفس المصير السيىء ، ولن تكون هناك سلسلة ، ولن يكون هناك حبل ليتعلق به أحدٌ طلباً للنجاة من هذا الدمار المحتوم .

هذا هو يوم الحساب الذى سنواجهه بعد الحياة الدنيا ، يوم الحساب الذى سنتعرض له وستتعرض له الدنيا كلها ، وهـذه هى القضيـة الأساسية التى سنواجهها ، ومن خلالها نمضى إلى حيث المستقبل الدائم ، نتيجة لما نقوم به من أعمال يومية ، وتلك الحياة إما أن تكون حياة سارة جداً ، وإما أن تكون حياة مؤلمة جداً .

إن أهل الدنيا يضطربون من خطر القنبلة الهيدروجينية ، إلا أنهم بعد الموت سيواجهون خطر عـذاب جهنم ، وهو أكثر رعباً من

خطر هذه القنبلة ، وعليكم أن تطلعوا الدنيا على هذا الخطر ، فكروا ماذا ستفعلون لتحمل هذه المسئولية الثقيلة فالدنيا جاهلة ، وأنتم تمتلكون العلم ، إن السؤال الذى سيوجه إلى أهل الدنيا هو هل طبقوا أحكام الله أو لَا ؟ أما السؤال الذى سيوجه لكم فهو ماذا فعلتم لهداية هؤلاء الضالين إلى الطريق المستقيم ، فالدنيا وأهل الدنيا سيجيبون على الجزء الخاص بهم أما أنتم فستُسألون عما سئلتم عنه وستسألون عن أهل الدنيا أيضاً .

إنها مسئولية عظيمة تقع على عاتقكم ويكفى تذكرها لأن تضطربوا وتهتزوا ويحرم عليكم نوم الليل وسكون النهار ، وهنا لن يبقى لديكم أى شوق للذات الدنيا أو متاعها ، فتنسون أن لكم ضروريات وتتذكرون فقط أن الآخرة هى الضرورة التى يجب أن تفكروا فيها ، ففكروا فى إصلاح أخراكم أكثر من إصلاح بيوتكم وأكثر من إصلاح ممتلكاتكم وأهلكم وعيالكم ، ... لقد انشغلتم بهذه الدنيا كثيراً فأضعتم وقتكم ولن تستطيعوا أن تفيدوا أهلها شيئاً... فإذا تحركت أقدامكم، تحركت على هذا الطريق لأن الطرق الأخرى إما أنها خاطئة وإما أنها بلا فائدة ، وأوقاتكم إما أن تضيعوها فى سد حاجاتكم الضرورية التى تضطرون إليها ، وإما فى الجهاد من أجل الدعوة ، ولن يبقى هناك أى مصدر آخر لأمانيكم وماتشتهون ، فعليكم أن تقطعوا كل علاقة لكم بكل شىء وأن ترتبطوا بهذا العمل الوحيد ، فهذا الواجب فرض عليكم وله كل الحق فى أرواحكم وفى أموالكم ، أى أنكم بأنفسكم وبما تمتلكون حق للدعوة الإسلامية ، فكونوا على أهبة الاستعداد الكامل لأداء

واجبكم كرجال المطافىء ولا تغفلوا أبداً عن هذا الواجب ، فهناك بضعة من الناس من هذا الحشد الهائل نهضوا من أجل الحق ، فإذا لم يقف هؤلاء الناس وإذا لم يفردوا حياتهم لهذا العمل ، فمن أين يأتى الآخرون الذين يقومون به ؟! .

وهناك مئات الآلاف من الناس ينهضون فى الصباح للعمل ولكسب الرزق فى ضوء النهار ، وينامون فى الليل ليزيلوا عن أنفسهم عناء العمل الشديد الذى مارسوه حتى يتمكنوا من العمل فى اليوم التالى ، يسافرون أحياناً ، للنزهة أو يسافرون من أجل البحث عن الرزق ، ووسط هذا الزحام الشديد ، عقدتم العزم على المضى على طريق جديد ، تبغون الآخرة بدلًا من الدنيا ، ويتطلب المضى على هذا الطريق أن تقضوا ليلكم فى تبتل وفى أنين وحزن لأن هذه الدنيا التى تعيشونها سيطر عليها الشيطان وسيطر عليها الطاغوت ، وعليكم أن تتذكروا كل صباح أن الله الذى جعل الشمس تضىء كل جاف ورطب يمكن أن يضىء حياة الإنسان بالهداية أيضاً ، إذا خرجتم خرجتم فى سبيل الله ، وإذا حللتم مكاناً حللتموه فى سبيل الله ، أنتم تبغون الجنة وتعرفون كيف تنالونها ، ولن يطأ بقدمه الجنة من لم يُغبرَّ قدمه بتراب السبيل الإلهى ، ولن يرى الجنة من لم تدمع عيناه خوفاً من الله ، ولن يدخل الجنة من لم يتحمل مصائب الدنيا من أجل الآخرة ، وفكروا إلى أى مدى وإلى أى حدٍّ استكملتم هذه الشروط .

نحن الآن نواجه طوفاناً مهولًا خَرّب خمسمائة قرية من هذه

المحافظة فى عدة أسابيع[1] وأضر بآلاف الناس أما المدينة ، فقد أحاطتها المياه من جميع الجوانب ، وأصبحت كالجزيرة وسط المياه . وغادر سكان المدينة بيوتهم وودعوها وجدرانها تتهاوى ، لقد حطم هذا الفيضان الأرقام السابقة منذ مائة سنة ، وصنعوا حول المدينة سدًّا وارتبط مصير البلد بهذا السد الذى تجمع الماء من خلفه وارتفع إلى عدة أمتار ، وصار ذكر السد على كل لسان وفى كل بيت ، ولم يعد على ألسنة الناس من ذكر سوى ذكر هذا الموضوع ، وفى منتصف ليلة ٢٦ / ٢٧ يوليو ١٩٥٥ م أعلنت مكبرات الصوت : « إن السد على وشك الانهيار ، أيها الناس عليكم أن تذهبوا إلى الأماكن البعيدة واصعدوا إلى الأماكن العالية ، انجوا بأرواحكم » وفى الساعة الواحدة من تلك الليلة حدث ضجيج شديد وبدأت أصوات عجيبة تسمع وخرج الناس من بيوتهم الطينية والحجرية ، وبدءوا يجرون تجاه السد ، بدأ مئات الناس يتجهون إليه يحملون الشكائر والأجولة المليئة بالرمال والتراب ، وبدءوا فى وضعها أمام الماء من حيث انهار السّد ، ومن الناس من لم تطأ أقدامهم الطين إلا أنهم بدءوا يضعونه على رءوسهم ، وظل هؤلاء الناس يعملون على ضوء الكشافات طوال الليل واستمر العمل حتى ظهر اليوم التالى وأعلن المهندسون فى النهاية أن السد خرج عن حدود السيطرة ، وبعد الساعة الثانية عشرة تحطم السد تماماً ، وبدأت المياه تغطى الشوارع ، وارتفع الصياح والعويل فى المدينة كلها وأغلقت المحلات ، وبدأ الناس يهربون إلى مآمنهم ، والمياه من خلفهم كأنها

---

(١) إشارة إلى الفيضان الذى حدث فى موسم المطر سنة ١٩٥٥ وأصاب شرق الهند بخسائر فادحة.

تجرى وراءهم . وتعقدت أمور الحياة وتشابكت جميعها تدور حول هذا الفيضان وبدا منظر القيامة يسيطر على المدينة لعدة أيام .

ومن أحداث هذا الفيضان تكتسب العبرة والنصيحة ، ولكن ما أريد أن أوجه إليه أنظاركم فى هذا الوقت أن الفيضان الذى حدث لم يحدث فى هذه المحافظة فقط ، بل هناك فيضان يعم الدنيا كلها ويكتسح فى طريقه حياة جميع الناس . وخطر الفيضان خطر يمكن لكل إنسان أن يشاهده بعينيه ، ويعرف كل شخص جيداً الآن ماهو الضرر الذى يصيب حياته من جراء هذا ولكن الخطر الذى يحيق به من جراء عدم اتباعه للحق لايمكن أن يُشاهد ولايمكن أن يعرفه أحد . وإخبار الناس بخطر الفيضان إنما يكفى الإعلان عنه بمكبر الصوت ، إلا أن الخطر الآخر يصعب على الدنيا فهمه إذ ما حاولنا إطلاعها عليه ، فنظريات أينشتاين ونظريات الذرة أمكن إفهامها للناس ، إلا أنه من الصعب إفهامهم أن ابتعادهم عن الحق هو بمثابة جلوسهم على بركان يمكن أن ينفجر فيطيح بهم فى أية لحظة .

وواجبنا لا يمكن أن يكون مجرد أن نضع فى أذهان الناس رسالتنا فقط بل يجب أن ندلل عليها ، ونضعها أمامهم وأن نكافح من أجلها لفترة طويلة ، ومثل هذا الشىء الذى يعد بمقياس الوقت أكثر الأمور انعداماً للوزن إذا ماعرض بأسلوب طيب سيصبح من أكثر الأمور وزناً أمام كل الأمور ، وسيشعر الناس بأن المضى على أى طريق آخر غير طريق الحق خطأ كامل ودمار ، ومن أجل هذا الأمر علينا أن نبذل جهودنا الفكرية والجسدية ، وأن نضحى بأكبر قسط من كسبنا فى سبيل هذا الهدف العظيم كله ليس لليلة واحدة أو ليوم

واحد ، بل للعديد من السنوات ، بل للعمر كله ... يجب أن نضحى فى سبيل هدفنا ، ويجب أن نعيش حياتنا على هذا الطريق ، وحين يدرك الناس رسالتنا ، وحين يعرف الناس الخطر القادم ، فيمكنهم أن يعدوا عدة النجاة من هذا الخطر ، ثم من هذا الذى يضحى من أجل الحق ؟ من هذا الذى يمكن أن يضحى بالروح من أجل النجاة من دمار الدنيا ؟! من هذا الذى يترك ما هو كائن أمام عينيه ليجد ما هو بعيدٌ عن ناظريه ؟! إنهم الفائزون أولئك هم الذين يمتلكون العزيمة والهمة لأنهم هم جوهر الإنسانية الأساسى ، وأولئك هم الذين لهم حق الفلاح والنجاح فى الحياة .

الدعوة الإســلامية

تمهيد

إنّ الضوء المنبعث نتيجة لاحتكاك حجرين سرعان ماينطفىء ، أمّا الضوء المنبعث من الشمس فهو مختلف عنه تماماً . فالشمس لا ينبعث شعاعها لاحتكاكها بشيء آخر بل هى فى ذاتها تمثل الضوء ، فهى ملتهبة فى الفضاء الرحب ، وتصدر عن مخزن لا ينفد من الأشعة والحرارة .

إنّ هذه الحالة تنطبق على الحركات الإسلامية أيضاً ، إذ إنّ الحركات الإسلامية منها حركات نشأت كردّ فعل مؤقت ، ومنها حركات نشأت كضوء منعكس من نور الله الأزلى فكانت مظهراً دنيوياً لمحاسن أخروية أبدية . وتبدو كلتا الحركتين إسلاميتين فى شكلهما الخارجى ، إلا أنه فى الحقيقة ثمة فارق جوهرى بينهما كالذى بين الشمس والشرر الصادر من احتكاك حجرين ، إذ إنّ الأولى حركة تنشأ نتيجة لرد فعل إنسانىّ ، ونتيجة للأوضاع المحيطة بها ، وهى لا تصدر إلا شعاعاً مؤقتاً وعابراً ، أما الثانية فهى عبارة عن ظهور حبّ العبد لربّه وتعلقه به ، وصورة منعكسة للحياة الأخروية الراقية ، وحصيلتها فتح باب الجنة الأبدية .

إنّ الحركة الإسلامية الإيجابية تنهل من فيض الله ، بينا تنهل حركة ردّ الفعل من تأثرها بالأوضاع المؤقتة ، كما أنّ الحركة الإسلامية الإيجابية كان زمن النبى ـ ﷺ ـ هو بداية انطلاقتها أمّا حركة ردّ الفعل فهى قد نشأت مؤخراً نتيجة أوضاع سياسية تارة وغير سياسية تارة أخرى .

إنّ هذا الفارق يخلق تبايناً بين الحركتين ، فبينما تردّد هاتان الحركتان نفس العبارات والمصطلحات الدينية إلّا أنّ مفاهيم تلك المصطلحات أو العبارات الإسلامية تختلف فى أذهان كلا الفريقين كاختلاف مفهوم كلمة « بوبى poppy » عند الهنود والإنجليز إذ إن « بابى » عند الهنود تحمل معنى « المذنب » وعند الإنجليز تعنى « الخشخاش » .

إنّ أصحاب الحركة التى تعبّر عن الدين متأثرة بطقوس سياسية مؤقتة يفهمون الدين ــ استناداً إلى عقليتهم السياسية ــ كلفظ مرادف للحكومة (السلطة) وبالنسبة لعلاقة العبد بربّه فهم لا يجعلون فى نصيب العبد سوى المباحث السياسية ، وبذلك فهم يحرمونه من الصعود إلى مرتبة العبودية اللطيفة ، أمّا الذين يحملون تصوراً دينياً صادراً من ينبوع نبوى فهم يفهمون علاقة العبد بربه بأنها علاقة يفقد فيها العبد أنانيته ، ويرمى فيها بنفسه أمام ربّه وكذلك الحركة التى وضعت تصوراً دينياً متأثرة بمذهب « صوفى » فهى تجعل الذكر بمعنى « التمتمة » فى حين أن الذى يأخذ مفهوم الذكر من حياة النبى صباحه ومساءه يفهمه كتجربة نفسية عظيمة ، ويعنى الذكر عنده تذكر ربّه ، ومنشأ ذلك قلب قد غرق فى تجليات الله تعالى . والدّين عنده ليس ترديد أعداد أو الانهماك فى الحسابات أو الدخول فى المغامرات السياسية . إنّ الذكر الحقيقى هو مايذوب له القلب ، بينما الذكر الذى يعتمد على العدّ والحساب ، يوجّه الاهتمام فيه إلى تكميل العدد المقررّ فحسب .

إنّ الدّين لا يعنى إثارة الشغب فى الخارج ، ولا يعنى العمليات الإشراقية ، وإنما يعنى إنبات الزهور المرضية لله فى حديقة الله ، وأن يطهر المرء نفسه من الرغبات الشهوانية لتصل نفسه إلى أعلى مستوى من الطهارة والبراءة كالمستوى الشعورىّ لعالم الملائكة .

والمرء بتلك الصفات المثلى والكيفيات السامية يؤهل نفسه ، لأنها تتيح له فرصة التقرب من الله ، وتمنحه حقّ الإقامة فى بيئة الجنة المطهرة .

حقيقةُ التوحيد

أصل الدين هو التوحيد ، ويعنى الاعتماد على الله وحده ، وجعله مركزاً لدوافع الحبّ والخوف . إن هبة التفكير والشعور التى زُوّد بها الإنسان تتجه إلى مركز آماله وتطلعاته ، والإنسان ــ بحكم فطرته ــ يحرص على أن يتخذ لنفسه شيئاً يهرع إليه ، ويجعله مركز رجائه ، كما يعتمد عليه ، ويتخذ من تذكره زاد حياته . وهو لا يستطيع العيش بدون أن يتخذ لنفسه مركزاً يتوجه إليه ، سواء أكان ذلك أموالًا أم سلطة أم قبوراً أم آلهة أم أشياء أخرى . لكن الإنسان إذا اتخذ من غير الله ملجأ فذلك شرك ، أمّا إذا كان الله هو مركز وجوده فذلك التوحيد .

إنّ الإسلام يقتضى أن تكون تطلعات الإنسان وآماله موجهة إلى الله فحسب ؛ حتى لا يتخذ من شىء آخر ملجأ له .

إنّ التوحيد حقيقة تعجز الكلمات عن التعبير عنها ، إلّا أن القرآن يعلمنا أن التوحيد هو اسم لعلاقة بين العبد وربه تمتزج فيها دوافع الحب والخوف والتوكل معاً ، وإنّ العبد يصبح موحداً حين يجد الله هو محبوبه الوحيد ، فلا يعتمد إلا عليه ، ويظلّ حذراً جداً حتى لا يصدر عنه فعل يكون سبباً فى حرمانه من رحمة ربّه ، فالتوحيد هو أن نجعل الله وحده مركزاً لكافة أنواع رغباتنا الإنسانية . ونورد هنا بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع :

يقول الله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعاً وأنّ الله شديد العذاب** ﴾ البقرة : (165) ﴿ **الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ التغابن : (13) ﴿ **إنّهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ الأنبياء : (90) وطبقاً لهذه الآيات ، فإن التوحيد من حيث الاعتقاد هو أن يصبح الإنسان أشدّ حبّاً لله ، وألّا يعتمد إلا على الله ، وأن يصبح رجاؤه وخوفه متعلقاً بالله ، وحتى يجد نفسه ينادى ربّه نداء الظمآن آناء الليل وأطراف النهار .

المقتضى العملى للتوحيد :

إنّ المقتضى العملى للتوحيد يمكن أن يقسم إلى قسمين : ١ ــ العبادات . ٢ ــ الأخلاقيات . فالكائنات التى خلقها الله التى لا تحصى ولا تعد ، كلها منصرفة إلى عبادة الله طوعاً أو كرهاً ، وكلها قد اختارت لنفسها دين التوحيد والذى يلزم على الإنسان أن يختاره فى حياته بإرادته: ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات**

والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ آل عمران : (83). إنّ الأشجار وكل ماله ظل يتفيأ على الأرض ، تعبّر عن سجدتها لربّها : ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجّداً لله وهم داخرون ﴾ النحل : (48) . هذه هي حقيقة العبادة . وهي أن يضع العبد جبهته بين يدى ربه ويركع أمامه ويفرش كيانه أمام ربه كما تفرش الشجرة ظلالها على الأرض . ماهي أخلاق الكائنات ؟ أخلاقها هي أن تظلّ أجزاؤها ملتزمة كيفية معينة قد قدرها الله لها : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً ﴾ الفرقان : (2) . وبذلك يعمل كل جزء مع الأجزاء الأخرى فى انسجام تام : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ يس : (40) . لا ينحرف عن المجال المقرر له قدر شعرة ، ويجرى فى مساره فى انسجام تام ودائم مع أجزاء الكائنات الأخرى . تلك هي أخلاق الكائنات . ويجب على الإنسان أيضاً أن يتحلى بنفس الأخلاق فعليه أن يلتزم بتلك المسئوليات الملقاة على عاتقه ، وأن ينجز واجباته مع الاتحاد الكامل والانسجام التام مع أولئك الإخوة الذين يحيطون به ويعيش بينهم . وينبغى أن يكون مَثل المجتمع البشرى كمثل الجسد الواحد ـــ كما فى الحديث ـــ فإذا أقدم عضو من الجسد على عمل صحيح ، صحبته أعضاء الجسد الأخرى بأسرها ، كما أن راحة عضو أو تعبه يعدّ راحة وتعباً لأعضاء الجسد الأخرى . إنّ هذا الشعور بالمسئولية الاجتماعية مطلوب من الإنسان أيضاً فى حياته . إنّ هذا الدرس درس العبادة والأخلاق الذى أُودع فى النظام الصامت للكائنات قد تبلور ـــ على مستوى البشر ـــ فى حياة النبى ـــ ﷺ ـــ حيث إن حياته كانت نموذجاً عملياً ومقياساً للطاعة : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ الأحزاب : (21) .

إنّ النبى — ﷺ — هو الإنسان الكامل الذى تبنى التوحيد بشكل مثالى عملياً واعتقادياً والله سبحانه قد حفظ سيرة رسوله وأولاها عناية خاصة فى سجل التاريخ للأبد . فالذى يريد أن يقابل ربّه فى حالة يكون فيها راضياً عنه عليه أن يعلم دين الله من خلال كتابه ويطبّقه فى حياته على ضوء سنة رسوله ، ولا يوجد عدا هذا الطريق أىُّ طريق آخر يمكن أن ينجّى الإنسان من قبضة الله أو يجعله مستحقاً لإنعامه .

نوعان من الحياة :

يوضح القرآن — من خلال ذكره لمثال الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة — حقيقة تلك الحياة التى تنشأ على أساس الشرك وتلك التى تنشأ على أساس التوحيد . يقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ۝ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكرون ۝ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ۝ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ إبراهيم (24 - 27) .

هناك نوعان من الشجر على الأرض ، منه ما هو مثل شجرة السيسم التى تقف صامدة متصلبة ، ترتفع شامخة نحو السماء ، ترسل فروعها إلى أطرافها ، ومنه ما ينبت مثل الشجيرات الصغيرة التى

لا تكاد تمتد إليها يد إلا قلعتها . إن هذين النوعين من الشجر يرمزان بلسان الحال إلى حياة الموحد والمشرك ، فالموحّد شجرة مرموقة عند سائر الكائنات ، وحين يصبح المرء موحّداً تستعد جميع الكائنات لتزويده بالرزق ، ويبدأ فى نموه كالشجرة الضخمة الراسخة بجذورها فى الأرض ، الشامخة المرتفعة نحو السماء بفروعها ، مخضرة مترعرعة تصاحبه نصرة الله ، ويبدى خصوبته فى كلا الفصلين ، فى الدنيا والآخرة .

وعلى عكس ذلك تبدو حياة المشرك كأنها شجيرة ، حين تظهر فلا تكاد تبتعد عن الأرض كأنها تهمس إليها ، فحياته لا تحظى بنصرة الله ، ولا تتمتع بالرسوخ فى الدنيا ، كما لا تثمر أية ثمرة فى الآخرة ، إنها يمكن أن تظهر مؤقتاً ــ كنبتة ــ فوق سطح الأرض من أجل تلك المهلة التى منحها الله إياها بناء على مبدإ الاختبار ، إلا أنها سرعان ما تقلع بعد انتهاء فترة الاختبار، ومن ثم يرمى بها إلى عالم النار فتصبح وقوده ، ثم يرث أرض الله هذه بعد إعادة تصميمها وترميمها هؤلاء الذين أثبتوا فى حياتهم الدنيوية أنهم عباد الله المخلصين .

رغم أن الفرق بين حياة التوحيد وحياة الشرك يظهر بشكل حاسم فى الآخرة إلا أن بداية ظهوره تكون فى الدنيا . إنّ الموحّد تخفق فى مواجهته قوى الباطل رغم بذلها كل الجهود فى سبيل إخماد صوته ويظل رغم ذلك منتصراً من الوجهة النظرية وينعم بنعم الله ، كما يُمنح أهل التوحيد الغلبة السياسية والاجتماعية أيضاً حين يجتمعون بعدد معتبر .

مصادرُ الدّين القرآنُ والسنةُ وليس التاريخ

إنّ رجلًا ولد فى ذرية تعانى الفقر والفاقة ، فلم يكن له بد فى حياته من أن يعتمد على جهده ويجعل لنفسه المكانة والشرف بين أبناء مجتمعه ، وقد جعل من ركوب المشقة وممارسة الدين قاعدة له ، فظل أسلوبه ناحجاً ، وتقدم بعمله إلى حد كبير للغاية . لقد شيّد منزلًا فخماً وبنى حديقة ومزرعة وأقام تجارة ، وكسب الزملاء والمعاونين . وبعد أن اشتغل فى مطلع حياته كأجير بسيط بلغ فى أواخر عمره درجة أصبح فيها رجلًا كبيراً ذا نفوذ وتأثير فى منطقته .

وقد أوصى أولاده على أن يسلكوا مسلكه فأقسموا له وعاهدوه على أن يقتدوا به ويسيروا على نهجه . إن هذا الرجل ذو طبيعة تميل إلى العمل البناء وتحب الأمن والسلام ولكن فى أواخر عمره دفع به بعض المفسدين إلى قفص المحاكمة ، فبدأت القضية تأخذ مجراها وهو يتردد على المحكمة حيناً بعد حين ، ولم تنته المحاكمة حتى بعد وفاته .

وخلفه أبناؤه ، وانطلقوا من النقطة التى فارقهم فيها . إنهم كانوا ورثة التاريخ المتأخر ولم يرثوا ــ فى الحقيقة ــ المبادىء التى تبناها أبوهم فى حياته . لقد كانت الحياة عند أبيهم عنواناً لتحمل المشقة وممارسة الدين ، وأصبحت فى نظر أبنائه اسماً للمجادلات القانونية ضد معارضيهم ، والعمل على منافستهم . كان الأب قد عثر على مبدإ الحياة فى العمل الإيجابى ، أما الأبناء فكان مبدأ الحياة يتراءى لهم فى تحطيم منافسيهم . لقد أنهى الأب عمره فى أعمال مفيدة وبنّاءة ، أمّا

الأبناء فقد صرفوا عمرهم فى الصراع والتناحر مع أعدائهم المزعومين حتى إنهم ضيّعوا تركة أبيهم من أجلها ، ومع ذلك فإنهم يظنون أنهم عاملون على أسوة أبيهم .

هذه الحالة نلحظها فى حركات إسلامية معاصرة . لقد نشأ الإسلام فى القرن السابع الميلادى وكان عبارة عن إنشاء العلاقة مع الله والتفكر فى الآخرة ، والسير فى معترك الحياة وفق منهج الرسول ، وكان عبارة عن رفع النفوس إلى مراتب الملائكة ، والخوف من النار والشوق إلى الجنة ، وتأدية العبادات ، وتبنى سلوك إرادة الخير للآخرين وإنصافهم . ولكن بعد هذه البداية صار للإسلام تاريخ دنيوى وأصبح يشقّ طريقه ، حتى صار الإسلام قوة عظمى فى العالم كلّه ، واستمر هذا الوضع ألف سنة وبعد ذلك بدأ التاريخ يتجه إلى مسارآخر : لقد قوّت الأمم الأخرى نفسها مسّلحة بأسلحة حديثة ، وفرضت سيطرتها على المسلمين ودفعت بهم إلى الوراء فى كل الميادين

لقد تأثر المسلمون بهذا الوضع الأليم ، وأخذت الحركات تنهض ، كردّ فعل له فى القرن التاسع عشر فى العالم الإسلامى ، ظهرت بأسماء مختلفة ، وتبنت كل حركة برنامجاً متميّزاً عن غيرها ماعدا أمراً واحداً قد اتفقت فيه جميع الحركات ، ألا وهو قيامها جميعاً بناء على طابع رد الفعل ، فظلّ هدفها هو مواجهة القوى المعادية ، وبعبارة أخرى لم تنهض متأثرة بحالة حياة « الأب » فى بدايتها بل متأثرة بالحالة التى عاشها « الأب » فى أواخر أيامه ، ولم

يخلق هذه الحركات عقل إيجابى بل خلقتها الدوافع السلبية التى تسببت فى إثارتها . وفى صدر الإسلام كان الإسلام ـــ عند المسلمين ـــ يعنى أن تصطبغ الحياة بصبغة الله ، ليدخلهم الله الجنة فى الحياة القادمة ، ولكن ـــ على العكس تماماً ـــ صار الإسلام عند مسلمى العصر الحديث عبارة عن الكفاح من أجل استرداد حقوقهم ونيل مطالبهم من الآخرين . لقد كان الاتجاه ـــ عند الأوائل ـــ إلى حقائق سماوية لكنه تحوّل الآن إلى أمور دنيوية وإلى مواجهة المعارضين الدنيويين ، ولقد اعترف بعضهم بهذا الفارق وأقرّوا بأنّ حركاتهم هى حركات لحماية الأمة ، والدفاع عنها ، وليست لمجرد إحياء الرسالة النبوية حتى إنّ بعضهم قد أظهروا جرأة حين لم يقتنعوا بهذا المفهوم الأخير ، وأعلنوا بأنّ المقصد الانقلابى الذى قاموا به هو الهدف الأصلىّ والأبدى ، وأنّ الأنبياء كلهم قد بعثوا لمحاربة القوى الطاغية وإقامة حكومة تطبق الشريعة الإسلامية .

هكذا أصبح دين الأمن فى إطار التفسير الجديد دين الحرب والقتال ، واتخذ منهج الإصلاح الذاتى صورة الانقلاب الخارجى . كما أن تردد الأبناء على المحكمة لم يبق عملاً مؤقتاً وإضافياً بل أصبح الهدف الأصلى لحياتهم ، وهاهى ذى الحركات أصبحت ديناً أصلياً سيحكم الله بناء عليه بالجنة والنار .

هذه هى القضية الكبرى فى مسيرة التاريخ الإسلامى الحديث ، فالناس يطلقون صرخة الإسلام مع أنهم بعيدون عنه بكثير وهم يهتفون ويكبرون باسم ﴿ الله ﴾ رغم أنهم لم يعرفوا الله بعد . لقد

ظهرت حركات إسلامية اعتبرت فريضتها هى التناحر مع عدو مزعوم كائناً من كان ، واعتبرت هذا الصراع هو خدمة للدين والأمة ، لذا نرى من بينها من دخل فى صراع مع القوى الاستعمارية المغتصبة ، ومنهم من قاد سياسة الاحتجاج ضد أكثرية غير مسلمة ، ومنهم من يشمّ رائحة الجنة فى إسقاط حاكم مسلم وخلعه من منصبه أو فى إطلاق النار على معاونيه .

لقد أصبح الدين يفهم فى طابع قتالى ، ولا أحد يفهمه فى طابعه المستقيم الحق كما أنزله الله بواسطة الرسل والأنبياء ، فتبعاً للمثال المذكور سالفاً يظهر سبب انطلاق الناس فى تفكيرهم الدينى من نقطة « المحاكمة » ، وعدم انطلاقهم من مرحلة « المشقة والتدين » .

والضرر الشنيع الذى ألحقه هذا الوضع بالدين هو حرمان الناس من أمر أصيل كان المطلوب الحقيقى للدين ، فنتج عن ذلك أنّ ممارسة الدين أصبحت أمراً ذا اتجاه خارجى مع أن طبيعة الدين تعبّر عن اتجاه داخلى ، لا أحد ـــ الآن ـــ يشعر بضرورة محاسبة نفسه رغم أن الخطب الحارة ماثلة فى كل مكان ، وإنّ المرء ليُظلم أحد بجواره ولكنه لايسمعه ولا يجد فرصة ليؤدى له حقه رغم أنه فى يقظة تامة بالنسبة لما يقع بعيداً عنه ، حتى إنّه يتصل أحياناً بمكان الحادث بهاتف أو يطير إليه فوراً على متن طائرة . وإن المرء لا يعير اهتماماً إلى الجوانب الروحية رغم نشاطه فيما يحظى باهتمام إعلامى حيث يسبق الواحد الآخر ، وهو لا يحسّ بضرورة محاربة القوى الشرسة الكامنة

فى داخله ، رغم أنه لا يبخل فى إدلاء التقارير والخطب فيما يتعلق بالعيوب الظاهرية . وهذا كله نتيجة للتصوّر الخاطىء للدين .

ماهُو الجهاد الإسْلَامي ؟

قد أعطى الإسلام لـ « الجهاد » مكانة عليا بين العبادات كلها ، لذلك فإننا نجد كل من يقوم بنشاط معين يطلق عليه اسم « الجهاد » لتصعيد نشاطه إلى درجة العمل الأعلى . فمنهم من يقوم بالاحتجاج ضد الآخرين للحصول على حقوق مادية ، ويطلق على هذا العمل اسم الجهاد الإسلامى ، ومنهم من يعتبر الجهاد هو القيام بأعمال تخريبية ، وإعمال القتل فى أوساط المسلمين أو إثارة القتال بينهم باسم إقامة الحكومة الإسلامية ، ومنهم من ينكبّ على المناظرة والمجادلة ضد عادات بدعية ، ومنهم من يحظى بلقب المجاهد الإسلامى من خلال خطبه الحارة ومحاضراته المثيرة ، ومنهم من يحظى بهذا اللقب بجعله الإسلام عنواناً للقيام بأعمال الشغب الدنيوية . ولكن كل هذه الصور هى مظهر للاستخدام الخاطىء لكلمة الجهاد وليست جهاداً إسلامياً . بل هى قتل للإسلام باسم الجهاد ، وهى جهاد ضد الله وليست جهاداً فى سبيل الله .

إنّ نداءات (الطائفية والعصبية) هى نداءات جاهلية ، فكيف يسوغ لنا أن نسميها جهاداً إسلامياً ، والأقوام الأخرى تمثل « المدعو » بالنسبة إلى المسلمين ؟! وأين نضع تلك النشاطات التى تقوم من أجل المطالبة بالحقوق ، ونحن نعلم أنّ المطالبة بأجر دنيوى

من المدعوين هو خلاف صريح لما جاء فى سنة الأنبياء ؟!
﴿ **وما أسألكم عليه من أجر** ﴾ والإسلام يمنع أسلوب المناظرة والمجادلة بصراحة ، ويأمر بتبنى طريق الحكمة والنصيحة فكيف يسوغ لنا أن نعتبر معترك الجدل والمناظرة جهاداً مطلوباً عند الله ورسوله ؟! وكيف يصحّ لنا إطلاق اسم الجهاد على أعمال الشغب بالمظاهرات وإقامة الجلسات أو على إنشاء الحركات لأهداف دنيوية رغم أنها مخالفة صريحة لطريق الله ورسوله ؟! .

إنّ الحروب الداخلية بين المسلمين قد منعت منعاً باتاً ، وثبت إجماع الجمهور على حرمة التمرد على الحكام المسلمين فى محاولة لإسقاطهم وإزاحتهم عن مناصبهم ، وإن كانوا قد استولوا على السلطة بالجبر والقهر أو كانوا حكاماً ظالمين أو فاسقين ، وقد علّق الإمام النووى على حديث « ستكون بعدى أثرة وأموراً تنكرونها .... » قائلًا : وفيه الحث على السمع والطاعة وإن كان المتولىّ عسوفاً فيعطى حقه من الطاعة ولا يخرج عليه بل يتضرع إلى الله تعالى فى كشف أذاه ودفع شرّه وإصلاحه » [شرح مسلم للنووى] وما دام الأمر كذلك فكيف يسوغ لنا أن نطلق اسم الجهاد على ما يحدث ـــ باسم إسقاط الحاكم الظالم ـــ من تقسيم للمسلمين إلى فئتين متناحرتين ، تقاتل هذه تلك ، وهل هذا جهاد إسلامى ؟! ولا شك فى أن الحديث الذى ينص على أن « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » المراد منه الإدلاء بكلمة حق عند سلطان جائر ، ولا يعنى هذا العمل على إسقاطه وإزاحته من منصبه .

والجهاد فى اللغة العربية يعنى : بذل أقصى الجهد وغاية الوسع ، وتستخدم هذه الكلمة فى المواضع التى تبذل فيها أقصى الجهود للحصول على أمرما . يقول الله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ فاطر : (42) يعنى أغلظ الأيمان ، ﴿ **وإن جٰهداك على أن تشرك بى** ﴾ لقمان : (15) أى بذلا أقصى المحاولات لإبقائك على الشرك ، ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ العنكبوت : (69) أى تحمّلوا المشاقّ من أجل الله ، ﴿ **والذين لا يجدون إلا جُهدهم** ﴾ أى مردود المشقة ويتضح من هذه الاستعمالات لكمة « الجهاد » معنى « الجهاد الإسلامى » وهو : بذل أقصى الجهد وغاية الوسع ، تبعاً لما يتطلبه دين الله بعد اعتناقه وقبوله .

ماهو الدين إذن ؟ الدين هو أن يقبل الإنسان الله خالقاً له ومالكاً ومعبوداً ، فلا يشرك مع الله أحداً فى حبه له ويقينه فيه ، وهو يخافه ويعتمد عليه كلياً ، وحين يضمر المرء هذه الكيفية الشعورية إزاء الله تتبلور أمامه حياة جديدة فهو يضع نصب عينيه كل ما وصل إليه من الله بواسطة رسوله ليطبقه ، ويعتبر الفلاح الحقيقىّ فى رضا الله بل ونيل العزة منه ويظل ذلك هو الأمر الوحيد المهم لديه ، أمّا النجاح الدنيوى فلا قيمة له بالنسبة إليه وهو يعتبر السير فى الطريق الذى بيّنه الله ورسوله سيراً إلى الجنة ، ومخالفة ذلك الطريق تعنى عنده إقبالًا على لهب جهنم ، ويصبح الله وحده مركز تطلعاته ، وتكون عباداته خاصة بالله وخالصة له ، وهو يراعى فى أخلاقه ومعاملاته ما حرّمه الله وحلله ، ويظلّ الله بجبروته وقوته رقيباً عليه ، فيقضى حياته وهو يشعر بمراقبة الله له حتى يموت ويعود إليه .

إنّ الدنيا هى موضع الامتحان ، ويظلّ الإنسان هنا فى مواجهة إغراءات النفس وانفعالاتها والسيطرة هنا — فى الغالب — تكون للشيطان وعبدة الباطل . إنّ هذا الوضع يخلق ضرورة ما نسميه بالجهاد ، فلا مناص للإنسان إلا أن يتمسك بدينه فى مواجهة كافة أنواع الإغراءات والعقبات — ويلزم عليه أن يعيش مع الله فى بيئة غير ربانية ، وهو حين يتمسك بالدين يستلزم ذلك أن يكون مجاهداً . فالجهاد هو هذه الجهود الشاقة التى يبذلها الإنسان للتمسك بدينه .

استخدم القرآن كلمة « الجهاد الإسلامى » بمعنى :

١ — الاستقامة ٢ — بذل الجهد فى سبيل الدعوة ٣ — القتال . فالمعنى الأول للجهاد يعنى : التمسك بالدين مع التغلب على تلك الصعوبات التى تعرقل سبيل اختيار الدين ، كأن تقع أية خسارة مالية فينبغى الصبر عليها ، أو خوف من فقدان المكانة والعزة في المجتمع فينبغى أن تتحمله ، أو اضطررنا إلى تحمل المعاناة الجسدية فعلينا بالصبر والمصابرة على ذلك ، ولو كانت الضرورة تستدعى قمع النفس وكبح جماحها لكان علينا أن نقبل على ذلك بدون تردد . إنه لا شىء من الشدائد يقف حائلًا بين المؤمن وبين سيره فى طريق الحق : ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم۝ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين۝ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ العنكبوت (5 - 7) .

إن هذا النوع من الجهاد لا علاقة له بالقتال والحروب ، إنما هو

يسرى كل حين فى كل ميادين الحياة يقول السيد الحسن البصرى : « إنّ الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف » [تفسير ابن كثير مجلد ٣ ص (29)] .

والمعنى الثانى : للجهاد هو ما يُفعل عند تبليغ رسالة الله إلى الآخرين ، وهذا أمر أكثر صعوبة يتطلب — لإنجازه — مجهودات شاقة للغاية ،ولذلك يطلق القرآن اسم الجهاد على هذه النشاطات الدعوية . قال تعالى : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً۞ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً۞ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾ الفرقان : (50 - 52) . أى ابذل معهم أقصى الجهود بالقرآن . إنّ الدعوة والتبليغ هى الرسالة الأصلية للمسلمين ، وشغلهم الشاغل وهى الآن — بعد ختم النبوة — مسئولية ملقاة على عاتق المسلمين ليبلّغوا رسالة الله إلى كافة شعوب العالم — كائناً من كان — وفى سبيل ذلك ينبغى تحمّل كافة أنواع المصائب والمشقات وتوظيف جميع الإمكانيات ، بداية من الوقت إلى المال والجسم والروح : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ الحج : (78) .

والمعنى الثالث للجهاد هو القتال : إن أهل الإيمان يصبرون على المصائب التى تنزل عليهم من المخالفين وهم يواصلون عمل الدعوة

رغم ما يقاسونه من المتاعب ، ولكن قد يتجاوز الأعداء حدود أسلوب المعارضة ، ويُعدّون العدة للقتال والحرب ، وفى مثل هذه الحالة ، وحين يثبت البدء فى الحرب من قبل الأعداء فالمطلوب القتال : ﴿ **ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أوّل مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين** ﴾ التوبة : (13) .

« الجهاد أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم » الترغيب والترهيب

إلا أنّ المسلمين ينبغى أن يكونوا فى تنظيمهم ووسائلهم ووضعهم على مستوى يتوقع منه تحقيق النصر فى الدفاع ، حينئذ يمكن أن يتصدّوا للخصم وأن يجيبوا على تحدياته الحربية فى ساحة القتال . وليست الحرب بالنسبة للمؤمنين حرباً عادية كما هى الحال الآن ، بل إنها فى الأصل امتحان لصبرهم واستقامتهم ، وهى حرب يتعرض لها المؤمن حسب وضعه وحالته . حين يتمسك المؤمن بإيمانه ، ويشرع فى أداء مسئوليات الدعوة ، فإنّه ينغمس من يومه الأول كلياً فى الحرب فى مواجهة دوافع نفسية ونزغات شيطانية وحالات غير مواتية تطوّقه ، كل هذه يدخل فى حرب معها وهذا النوع من الحرب هو ما يعرف بـ « الصبر » . وهذا الصبر حين يصل إلى أقصى حدّ نسميه « الجهاد » وهو بمثابة امتحان صعب لإيمان المؤمن واستقامته على الحقّ . لذا يرشدنا النبى ـــ ﷺ بقوله :
«لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتم فاصبروا » متفق عليه
وفيما يتعلق بالجهاد بالسيف فيأتى إرشاد القرآن : ﴿ **انفروا خفافاً**

وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ التوبة : (41) .

ورد فى الحديث « إنّ الجنة قد حفت بالمكاره » . والإنسان حين يشرع فى سفره إلى الجنّة فهو يتعرض لبعض العقبات ولأوضاع غير مواتية ، فالجهود التى يبذلها للتغلب على تلك العقبات ولتجاوز تلك الصعوبات من أجل مواصلة السفر هى الجهاد نفسه . إنّ الإنسان حين يترك الطريق الذى خطه لنفسه ، ويختار طريق الحق فهو يمارس الجهاد ، وحين يضحى بالمكانة الظاهرية ومنافعها فى سبيل شوقه للحصول على منافع « الغيب » فهو يمارس الجهاد ، وحين يضبط لسانه خوفاً من الله رغم امتلاكه لذخيرة من الألفاظ فهو إذن يجاهد ، وحين يترك طريق الشهرة ليبقى مجهولًا فهو يجاهد أيضاً .

إنّه إنسان يقتحم الصعوبات ويؤثرها على الطرق السهلة ، فهو بدل أن يغذى أنانيته يكبح جماحها ، وهو بدلًا من أن يجعل العقبات وسيلة للاعتذار يعبرها ببذل أقصى الجهود . وهذا هو الجهاد الذى يستمر مع المؤمن فى حياته كلها . والحرب مرحلة ممكنة الوقوع فى إحدى مراحل الجهد والمشقة هذه والفرق بين القتال والجهاد العام هو أن الجهاد العام يصحب المؤمن فى حياته كلها وفى جميع الأحوال ، بينما الحرب تأتى نتيجة لظروف خاصة ، ويتمّ خوضها بعد توفر شروطها الخاصة وما دام الجهاد القتالىّ لا يكون إلا فى ظروف خاصة ، وبعد توفر شروطه المحددة ، فإنه إذا قام به أحد دون توفّر شروطه سالفة الذكر فلن يكون هذا جهاداً بل فساداً يتبرأ منه الله ورسوله .

إنّ الجهاد هو أن تجتهد من أجل أن تكون ورعاً فى الدنيا التى تسودها بيئة غير ربانية ، فهو كما يطلق على حماية النفس من النزغات الشيطانية من جهة يطلق كذلك على السير إلى الله تعالى بعد اقتحام كافة أنواع العقبات الخارجية التى تعترض طريق الإنسان ، إنّ الجهود التى تبذل فى سبيل مواصلة السير فى سبيل الرب فى الدنيا المشحونة بالفتن هو الجهاد نفسه ، وهذا يقع فى داخل الإنسان حيناً ويقع خارجه حيناً آخر .

الجهاد عند البعض عبارة عن ثورة ضدّ حكام قائمين لإزاحتهم عن مناصبهم ، وانتزاع مقاليد « السلطة » منهم بغية تطبيق الإسلام على الأرض من حيث هو نظام سلطوىّ كامل ، ولكن نظرية كهذه لا علاقة لها بالإسلام أو الجهاد ، حتى إننا لا نجد أىّ نص فى ثنايا القرآن والحديث يؤيّد هذا النوع من الانقلاب أو ينصّ على خوض مثل هذا الجهاد الانقلابىّ .

إنّ الأمر الذى يطلبه الله من الإنسان ــ طبقاً للقرآن الكريم ــ هو أن يختار الإنسان حياة الإيمان وحياة العمل الصالح ، وحين تتبنى مجموعة معتبرة مثل هذه الحياة تمنح مكافأة لها سلطة الأرض أيضاً : ﴿ **وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ النور : (55) .

أمّا تلك النظرية فهى تتطلع إلى القيام بأعمال هى فى الحقيقة من

شأن الله وأمره وحده ، وتدع ما هو من صميم واجبها . إنّ هذه النظرية تقلب أمور الإسلام رأساً على عقب ، فهى تجعل الإسلام ، فى الواقع ، عنواناً لأنشطة سياسية كما هى الحال فى الشيوعية . والإسلام يحرص على أن تكون أنشطة الإنسان كلها موجهة إلى الآخرة ، على أن يتوجه هو إلى ذلك العالم القادم بكليته ، بينما هذه النظرية توجه كافة النشاطات الإنسانية إلى الدنيا القائمة وينجم عن ذلك نشوء حياة ذات نزعة دنيوية أو سياسية بدلًا من حياة ذات نزعة أخروية والإنسان تبعاً لذلك — يوجه كلّ اهتماماته فى سبيل إشعال نار الثورة السياسية بدلًا من أن يوجّه أفكاره واهتماماته فى سبيل النجاة من عذاب الآخرة ، هذه هى نتائجها ، ومن نتائجها أيضاً أن ينصرف الإنسان من نقد نفسه إلى نقد الآخرين ، ويكون ذلك هو شغله الشاغل وأن يجعل هدف مساعيه وجهوده العالم الخارجى بدلًا من ذاته ، وهو بدل أن يقلق من أجل إصلاح نفسه يتوجه إلى مقاومة الحكام ، ويعتبر ذلك أسمى أعماله ، وذلك ليزيحهم من مناصبهم وينتزع مقاليد السلطة من أيديهم ويجعل الإسلام نظاماً كاملًا نافذاً فى كلّ شعب الحياة .

إنّ هذا الإسلام الكامل — الذى تقدمه هذه النظرية — هو ناقص إلى درجة أنّ أىّ جزء منه يصعب وجوده فى مكانه الصحيح ، فهو يحرم الأفراد من نعمة كبرى هى نعمة (القرب من الله) بخلق مزاج سياسى . وهو يشغل ذهن المرء فى أبحاث سياسية خاوية فلا ينصرف إلى تذكر الله ، ويخلق أفراداً يضعون الحكومة نصب أعينهم ويجعلونها جزءاً من أمزجتهم فإذا سنحت الفرصة قاموا بأعمال

الشعب كالأحزاب المعارضة ضد حزب حاكم ، وفرّقوا الأمة إلى فريقين متناحرين ، وشحنوا البلاد فساداً وقتلاً .

إن الثمرة الكبرى التى تمنحها شجرة الإسلام الكاملة هذه هى صورة معكوسة للإسلام ، أمّا دين الله فهو رحمة لعباده ، جاء ليقدم للإنسان مثال (بيئة الجنة) ، لكنّ نظرية كهذه ينجم عنها تصوّر أنّ الدين عبارة عن التناحر وممارسة الشغب الدنيوىّ باسم الدين ، وإطلاق النار على الحكومة ، والقمع السياسىّ . إنّ هذا التصور قبيح للغاية حتى إنّ الناس يظلّون يصرخون « إذا كان هذا هو الإسلام فغير الإسلام أفضل » .

قبل حوالى ثلاثين سنة ، اطلعت على صورة فى إحدى الصحف الإسلامية ، وكانت تمثل بيت المقدس مكتوب تحتها هذه الكلمات ، بحروف بارزة : « أرض القدس ضحيتها أربعمائة مليون مسلم » نعم لا شك فى أن المسلمين الذين راحوا ضحية أرض القدس عددهم كبير فى السنوات الماضية ولكن النتيجة لم تكن لصالح المسلمين ــ بل العكس ــ لأنّ الصهاينة قد استولوا على مزيد من الأراضى إضافة إلى مااحتلوه من قبل . ومما يزيدنا حيرة ودهشة أنّ عدد المسلمين خلال الثلاثين سنة الماضية زاد على أربعمائة وبلغ ضعفه ، وهيهات أن يحققوا أىّ نجاح ملحوظ ضد أعدائهم ! ولكن لماذ يخفق المسلمون رغم كثرة عددهم ورغم مقاومتهم الصلبة ؟! لا شىء وراء ذلك سوى أنّهم لا يقومون بأداء مسئوليتهم الأصلية . إنّ كافة وعود الله الاجتماعية الخاصة بالمسلمين سَيَفِى الله بها بشرط أن يقوم المسلمون بالأعباء الملقاة على عاتقهم ، الأعباء التى خصّهم الله بها فحسب .

ولو لم ينهض المسلمون لأداء مسئوليتهم فهم فى عداد المجرمين عند الله فى الدنيا والآخرة .

ولكن ماهى هذه المسئولية ؟ وماهو هذا العبء ؟

إنّه توصيل رسالة الله تعالى إلى البشرية جمعاء . إن هذا العبء ليس عملًا قومياً ولا علاقة له ــ من قريب أو بعيد ــ بالمقاصد السياسية والاقتصادية ، إنه مجرد عمل أخروىّ وإلهى . إنّ الله خلق الإنسان للامتحان ، لذا منحه حياة محدودة على الأرض ثم سيجمعهم جميعاً فى الآخرة ، وهناك سيجازيهم طبقاً لأعمالهم إمّا الجنة وإمّا النار .

رغم أنّ الله عليم بأفعال عباده إلّا أنّ الأسلوب الذى قرّره ــ لعدله ــ هو أنّ فئة من البشر يقومون بإبلاغ الناس عن يوم الحساب القادم ، وهؤلاء الأفراد الذين يبلغون رسالة الله إلى الناس هم أنفسهم سيكونون شهداء لله ، إنهم سيقفون أمام محكمة الآخرة ويشهدون على من قبل رسالة الله وعلى من رفضها ، والله سبحانه يراعى شهادتهم ويُصدر الحكم طبقاً لها .

إنّ الذنب الذى يرتكبه المسلمون هو أنهم أغفلوا مهمتهم ، فهم لا يقفون كشهداء لله أمام الأمم الآخرى . والشاهد مطلوب عند الله طبقاً لعدله : ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ آل عمران : (140) .

ولكن العالم الإسلامى بأسره قد غفل عن هذه المسئولية فهو لا يدخل نفسه فى خطة الله وهذا الوضع الذى دفع بالمسلمين إلى

حظيرة المجرمين هيهات أن يستحقوا به نصر الله . مما لاشك فيه أن المسلمين قد استمدوا قوة كافية من طاقة النفط الطبيعى .
هب أنهم لم يُعطوا هذه النعمة الهائلة ولم تظهر لهم ، فكيف سيكون حالهم ؟ لو كان الأمر كذلك لوصلوا إلى درجة منحطة على المستوى العالمى ، وذلك نظراً للأعمال الحمقاء التى ارتكبوها خلال القرن الحاضر .

الإسلامُ والسيَاسة

من الصور التى تسهم فى إفساد الدين ما ذكر فى القرآن باسم « مضاهاة » : ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم يضٰهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ التوبة : (30) . « والمضاهاة » تعنى : « المشابهة » يقال : هو ضهيك أى يشبهك ، والمراد منها : عرض الدين بعد اصطباغه بصبغة الضالّين متأثراً بنظرياتهم وعقائدهم . ويكفينا هنا مثل اليهود الذين اعتبروا نبى الله عزير (عزرا) ابن الله (المجازى) . والمسيحية التى اعتبرت عيسى نبى الله ابنه (المجازى أو الحقيقى) . إن عقيدة حلول الله أو تجسده قد سادت المجتمعات المشركة منذ عصور سحيقة ، ونلاحظ ذلك النموذج فى عقيدة « أوتار » فى الهند ، والتى هى عبارة عن بروز الله فى هيكل إنسانى ، فاليهود والمسيحيون أخذوا يطلقون على أنبيائهم تلك المصطلحات والكلمات من أجل تعظيمهم ، وقد استخدمها المشركون حين أرادوا تعظيم عباقرتهم وكبرائهم ، وعبروا عن عظمة سلاطينهم وأشرافهم فقالوا إنهم (تجسد الله) (Incarnation) على الأرض . وهكذا شرع اليهود

والنصارى فى القول بأن المسيح وعزيراً ابنا الله وقد ظهر الله تعالى فى صورتهم فى الحياة الدنيا .

الفهمُ السّياسى للإسْلَام :

لقد استمر هذا الفساد والخلل فى الدين باقياً طوال عصور غابرة ، وظلت تلك الصورة إلى عصرنا الراهن . فالذين لم يجدوا الدين كنموذج للعظمة الإلهية أعطوا الدين مكانة العظمة الدنيوية . وبعيد الحرب العالمية الثانية حين ازدهرت النظريات الاشتراكية ، رأى البعض أن الدليل القوى لإثبات عظمة القرآن هو إثبات مطابقته للاشتراكية ، ففى نفس العصر تمّ وضع مصطلح (الاشتراكية الإسلامية) حتى قيل إن محمداً هو أول رجل اشتراكى فى التاريخ البشرى . وهؤلاء الذين لم يصلوا إلى حقيقة كيفية هم يعبرون عن الحقيقة بلسان كمىّ ويجتهدون لجعلها جديرة بالفهم ، ومثال ذلك إبراز الإسلام فى صورة مصطلح سياسى ، ففى عصرنا الحديث حين ازدهرت النظريات السياسية رأى بعض الناس أن الصورة الراقية لإعلاء شأن الإسلام هى أن يعرض الإسلام فى صورة نظام سياسى كامل .

إنّ هذه الفكرة الأخيرة قد حظيت الآن بالقبول كما حظيت نظرية التثليث فى المسيحية قديماً ، والتى كانت من وضع المتكلمين المسيحيين كجواب عن « الأقانيم الثلاثة » اليونانية . وكان وراء قبول هذا التفسير السياسى للإسلام سببان اثنان :

أحدهما : أن هذا التفسير يبدو فى شكله ذا روعة وعظمة ظاهرية بارزة **وثانيهما** : نفسيات رد الفعل .

إنّ المعارضة السياسية التى تعرضّ لها المسلمون من القوميات المختلفة كان نتيجتها نشوء دوافع ردود الفعل السياسى فى أوساط المسلمين . لذا نهضت حركات سياسية عدة تحت عناوين مختلفة فى أوساط المسلمين ، وظل تصور النظام السياسى للإسلام سنداً فكرياً لجميع هذه الحركات .

إن التصور السياسى كان يمثل عند بعض الأفراد عموداً فقرياً بالنسبة للإسلام مناسباً لمقتضى وقتى ، وكان ذريعة طمأنينة فكرية لنزعات ردّ الفعل عندهم . إنها لحقيقة بارزة ، ومن الأمور المسلمة فى تاريخنا المعاصر أن الحركات التى نشأت عندنا معظمها ظهرت كنتيجة رد فعل لأوضاع خارجية وخاصة الأوضاع السياسية ــ وكان من نتائجها أن المحاولات التى قامت لإحياء الإسلام قد تحولت إلى المعارضة السياسية ، ودخلت خضمها وإلى جانب هذا الخطإ العملى ، فإن الخطأ الفكرى قد زاد الأمر تفاقماً ، إذ إن المساعى التى بذلت من أجل تقديم الدين وعرضه فى أسلوب وقتى (عصرى) قد اتجهت أخيراً إلى تصور سياسى للدين ، تماماً مثلما حصل للجهود التى بذلت لحلّ قضايا الطبقة الكادحة فى حقل الصناعة فى القرن التاسع عشر ، والتى أسفرت فى النهاية عن نشوء فكرة مادية (الماركسية) على صفحات التاريخ .

إن العلاقة الروحية (الملائكية) بين الله وعبده قد اتخذت

صورة سياسية ، وتميّزت بها وغدا الإسلام عنواناً لممارسة الشعب السياسيّ في حين أنّ الإسلام ـــ في جوهره ـــ عبارة عن خلق علاقة نفسية ، وروحية بين العبد وربّه ليعيش في رحاب الله تعالى ، ويتنفس في بيئة وجوّ أخروي ، وينمو بين جنبيه إنسان طاهر يمكنه أن يسكن في عالم الجنة الأبدي .

إنّ عرض الدين في أسلوب عصريّ ضرورة ملحة ، بينما اصطباغ الدين بصبغة فكرية وقتية أمر بالغ الخطورة ، لأن الأول يهدف إلى تجديد الدين بينما الثاني يهدف إلى تحريفه فلكل عصر لسانه ، ولكل زمن أساليب وألفاظ يفكر الإنسان عن طريقها ، ويعبّر عن مشاعره وأحاسيسه من خلالها . وحين يتجدد العصر تنقطع علاقة الذهن بالألفاظ . إن لفظة ماكانت تحرك مشاعر الإنسان في عصر ما سوف تفقد فعاليتها الثورية بحلول عصر جديد . عندئذ تصبح الحاجة ماسّة إلى بناء العلاقة من جديد بين العقول والألفاظ . على أن هذه « الحداثة » تتسم بها الكلمات والأساليب وليس الأفكار .

ماهي الحركة الإسلامية :

إنّ الحركة الإسلامية هي حركة إنسانية تشبه البستانيّ الذي يوجّه عناية خاصة إلى كل شجيرة على حدة ، فهو يبذل جهده لتصبح كل شجيرة شجرة متكاملة كذلك الحال بالنسبة إلى الحركة الإسلامية فهي تجعل من كل فرد هدفاً لها ، وتسعى إلى جعل كل من ولد على وجه الأرض عبداً لله مخلصاً له بالمعنى الحقيقيّ ، وتغرس في كيانه تلك الخصائص التي تضمن دخوله الجنة والسكن فيها . إنّ النجاح المنشود في نظر الحركة الإسلامية هو خلق هؤلاء العباد الذين

يعيشون فى الله على وجه الأرض عباداً يملكون قلوباً طاهرة من العقد النفسية (Complex - Free soul) . هذا هو الإنسان الذى يتذوق متعة ولادة جديدة . الولادة الأولى فى صورة إنجاب من بطن أمه ، والآن هو يولد للمرة الثانية فى كنف الإسلام ــ هذه الولادة الجديدة تنجب أرواحاً تقبل الحق حين تراه ، ولا يقف دون قبولها للحق أية مكانة أو عزّة « فهو يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . هذا المولود الجديد يتجاوز هيكل الإنسان ، ويكمن فى أعماقه إنسان يشكر الله على نعمه حين يتمتع بها ، ويسير فى أرض الله ويخبر الناس عن أحوالها . ويكشف عن قدرات خارقة كامنة فى داخل إنسان عادىّ بسيط ، وهو يهتف لا شعورياً : ﴿ **ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبناً وكفر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار** ﴾ آل عمران : (193) وتصبح روحه غضة متألقة تتلألأ كتلألؤ الأشجار بعد سقوط المطر .

إنّ الإيمان الذى لا يخلق مخافة الله هو إيمان كاذب . القرود حين تسمع صيحات الأسد فى الغابة تتساقط من فوق الأشجار كتساقط أوراق الأشجار فى فصل الخريف . إن الإنسان حين لا تصيبه هيبة إلهية مثل التى تصيب القرود بمجرد تصوّر الأسد هيهات أن تتسنَّى له معرفة الله .

إنّ هدف جهود الدعوة الإسلامية الأفراد ، الذين سوف يصدر بشأنهم حكم الجنة أو النار وليس « الحكومة » أبداً . وليست الحكومة هى التى ستقف أمام محكمة الله ، إنما الذين سيقفون أمامها هم الأفراد ، ليقدّم كل فرد للحساب بمفرده . والمحرّك الحقيقىّ

لنشاطات الداعية الإسلامى هو درء ذلك الخطر عن الإنسان ــ والحقيقة أنّ الغرض من وراء الدعوة الإسلامية ليس إصلاح أنظمة الحكم إنما المقصود هو إصلاح الإنسان . ولا تنحصر أهمية هذا المبدإ فى اعتبار الأفراد هم الأساس لإقامة الأنظمة أو إفسادها ، على اعتبار أنه لا وجود لنظام بدون أفراد ، بل يتجاوز ذلك إلى القضية الأصلية للحياة ألا وهى قضية الجنة والنار ، ومن سيكون من أهل الجنة ، ومن سيكون من أهل النار ، حيث ستتمُّ تصفيتهم على مستوى الأفراد كل فرد على حدة وبشكل جماعى ، وهذا هو السبب الذى جعل الدعوة الإسلامية تستهدف الأفراد ومحاولاتها تتركز على جعل الأفراد مؤهلين ليحكم الله لهم بالجنة لا بالنار حين يلاقونه بعد موتهم .

إنّ الإسلام فكرٌ مستقلّ وحقيقة إيجابيّة ، موحيه هو ذلك الإله الأزلى الأبدىّ . إنّه صدى للفطرة الإنسانية الثابتة غير القابلة للتغيير . إنّه الدين الذى تتابع وجوده بشكل مستمر فى أوساط البشر منذ أول يوم . وحين يجد الإنسان الإسلام على هذا المستوى وبهذه الحقيقة فهو قد دخل فى زمرة الملائكة . وحين يغمره هذا الإحساس الفطرى القوى ينبعث فى داخله إنسان جديد . وهو حينئذ ينعم بنعم الله ويصبح الله قرة عينه ويظل يقضى صباحه ومساءه بجوار ربه . هذه هى الحياة الربانية التى تسمى بـ « الإيمان » إنها حياة يمكن أن يلمسها الإنسان بشعوره فى حياته الدنيوية ، وبصورة حسية وحقيقية فى حياته بعد الموت ، والتى نسميها الجنة .

استغلال الإسلام كهتاف سياسي :

لكن الإسلام حين يتحول إلى السياسة يحرم الإنسان من هذا الإسلام الحقيقى . ففى غمرة ضجة السياسة يضيع ذلك الأمر الذى كان هدفاً أصلياً للإسلام ، وهكذا يتحول الإسلام إلى عنوان لإثارة الفتن والشغب والضوضاء ، كما هى الحال بالنسبة للشيوعية والاشتراكية ــ على سبيل المثال ــ بل إن هذا النموذج من الحركة يحطّم إمكانات قيام نظام إسلامى ، لأنّ النظام الإسلاميّ يؤسسه الأفراد الإسلاميون ، أمّا هذه الحركات فإنها تقف عقبة أمام خلق أفراد إسلاميين حقيقيين .

قد تنهض حركة بهتاف « مكافحة الفقر » على أنّ أعضاء هذه الحركة يتجمعون حول رجل هو ليس بفقير ألبتة ، بل هو قائد ثريّ ، وهناك أفراد ينهضون من أجل قضية الطبقة الكادحة ويتمتعون بشعبية ومركز اجتماعى حتى يصبح أحدهم قائداً يمتلك ثروة طائلة مثل الإقطاعى الكبير . هذه الوقائع إنما يرجع سببها إلى أن « الفقير » مهين وحقير عند الناس إلى حد أنّه لا يتراءى فى أنظارهم . فهو لا يصبح مركز اهتمام النّاس مطلقاً ، فالناس يتجمعون حول شخصية كبيرة يرونها كفؤاً لهم ، وهى تلتقى معهم فى صورة « قائد» وإن لم تربطها بالفقر أو بالطبقة الكادحة أية علاقة .

هذه الصورة تنطبق على الدين أيضاً ، فماهو الدين ؟ هو أن يجد المرء ملاذه ومرجعه وحين يجتمع ــ باسم الدين ــ هؤلاء الذين آمنوا بالغيب فسيظلوّن ينظرون إلى الله رغم أنهم لا يرونه ،

وسيعيشون فى بيئة الآخرة رغم أنهم لا يزالون فى الدنيا . مثل هؤلاء الأفراد يجعلون الله ملاذهم ومركزهم . والحقيقة الكبرى عندهم هو الله ، ولا يخطر ببالهم فكرة التوجه لغير الله ، كما لا يجعلون غير الله هدفاً أو ملجأ لهم أبداً .

ولكن حين يجتمع حول الدين أناس ليسوا على مستوى الإيمان بالغيب ممّن يتطلّعون إلى أشياء أخرى أكثر مما يتطلعون إلى الله ، ويرون الدنيا المبسوطة أمامهم أكثر من العالم الغيبى المستتر ، حينئذ فإنّ وضعهم يشبه هؤلاء الذين ينهضون من أجل الفقراء والأجراء وهم يقومون باسم الله لكنهم سرعان ما ينحرفون عن سبيل الله بسبب شغفهم بالظاهر وهم يرددون هتافات النظام الأخروىّ لكنهم لا يعملون إلا من أجل نظام دنيوىّ . أمّا إسلامهم فمجرد عنوان للحصول على المكانة الدنيوية وليس هدفه الفلاح الأخروىّ أو الحصول على المكانة الأخروية .

الإسلامُ ليس محكمةُ الجنايات :

ثمة بعض الحركات فى عالمنا المعاصر تنادى بتطبيق حدود الإسلام وعقوباته ، وأسموه « تنفيذ النظام الإسلامى » . وهذا خطأ فاحش للغاية فهذا التصور (الجنائى) الخاطىء قد أدى إلى قتل روح الإسلام ومغزاه . إنّ تطبيق العقوبات بالسوط ـــ مثلاً ـــ فى مدرسة ما ، يتصل بالنظام المدرسى وليس له علاقة ـــ فى حد ذاته ـــ بهدف تعليمى أصلى ، مثله مثل عقوبات الإسلام التى تهدف إلى تنظيم

المجتمع الإسلامى ، فهى ــ فى حد ذاتها ــ ليست الهدف ، وحتى حين وصل الإسلام فى الدور الأول إلى السلطة ، ونفذ قوانين الإسلام بالمفهوم الذى سلف ذكره ، مازال فى المجتمع ذاته « مسلمون » أعلن عنهم القرآن الكريم بقوله : ﴿ **إنّ المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ .

الحقيقة أن المقصد الأصلىّ للإسلام تزكية الأفراد التى تخلق فى كيانهم تلك الأوصاف الكامنة التى تجعلهم مستحقين للجنة . والإسلام يستهدف من خلال مساعيه جعل الأفراد أناساً يقطنون الجنة ولا يهدف إلى جلدهم أو إعدامهم شنقاً ، هب أنّ شخصاً قد ارتكب جرائم . فهل ستتوجه حملة لواء النظام الإسلامى بالدعاء له ؟ وهل سيقدمون له النصيحة بعطف وحنان وفى خلوة . وهل سيبذلون جهوداً جادة لتحسين وضعه وإصلاحه كما يفعل الأب من أجل ابنه ؟ كلا . بل كل ما سيفعلونه هو التأهب لجلده أو شنقه ، هؤلاء هم حملة لواء قوانين الجنايات باسم إقامة النظام الإسلامى ، أمّا الذين يطبقون قوانين الإسلام فهم هؤلاء الذين يحاولون جاهدين من أجل إيصال عباد الله إلى جنته ، إنّهم نشيطون فى إصلاح الناس خضوعاً لكافة قوانين الحكمة والنصيحة ، وليسوا مندفعين بحماس انتقامى بل بشعور اصلاحى يطبقون أحكام الله تعالى على الآخرين يستوى لديهم فى ذلك القريب والبعيد .

الهدفُ من القوانين تنظيمُ المجتمع :

إنّ معظم الحركات القائمة اليوم باسم الإسلام هى حركات ردود فعل ، وليست ــ فى حقيقتها ــ حركات إسلامية إيجابية .

ففى القرون الماضية تسلّح الغرب بأسلحة حديثة وأثبت غلبته على العالم الإسلامى بأسره ، وفرض سيطرته ليس على الساحة السياسية فحسب بل على الحياة الفكرية والعقلية أيضاً ، وكان من الطبيعى أن تنشأ ردود فعل فى أوساط المسلمين فقام الكثيرون من أجل مواجهة هذا العدو الجديد ، وقد كان هذا ــ عملًا دفاعياً ، فلو تمّ تحت عنوان الدفاع لما كان هناك داع للحرج ، لكن المشكلة هى جعل هذه العملية الهدف الأصلى للدين ، حتى إنّ البعض قد صوّر الدين بأكمله بناءً على هذا التفسير فحسب . وذهبوا يفسرون القرآن والأحاديث من الوجهة التى تنبىء أنّ الرسالة الحقيقية للأمة الإسلامية هى مقاومة الشعوب الأخرى وفرض السيطرة السياسية عليهم ، وفى بداية الأمر كان مرمى هذا الصدام شعوباً غير مسلمة ، إلا أن المسلمين حين تحرروا من السيطرة السياسية التى فرضت عليهم من قبل شعوب غير مسلمة ، وذلك بعيد الحرب العالمية الثانية ، أصبح الحكام المسلمون أنفسهم هدفاً لتلك الحركات ، وذلك لأنهم لم يطبقوا ما تنشده الأمة المسلمة (تنفيذ القوانين الإسلامية) . ولذا أصبحت الحاجة ماسة إلى إزاحتهم عن طريق النضال والكفاح ليتمّ تنفيذ القوانين الإسلامية بعد السيطرة على السلطة .

والنتيجة التى أدّت إليها هذه النظرية هى أنّ السياسة التى كانت جانباً إضافياً للدين أصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الدينية . والحقيقة أنّ القوانين الاجتماعية للإسلام هى من أجل تنظيم المجتمع الإسلامى وينبغى تنفيذها بالنظر إلى مدى صلاحية المجتمع لها ، ولكن التفسير السالف الذكر جعلها من مسألة (الجنة والنار) : « ناضلوا

نضالًا مستميتاً تدخلوا الجنة وإلا فالنار فى انتظاركم » . هذا هو الخطأ الذى اقترفته فرقة (الشيعة) فى القرن الأول الهجرى . إذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجل من بنى هاشم على منصب الخلافة — كما أبدعت هذه الفرقة عقيدة الخلافة الأسرية فى محاولة لإثبات شرعية تلك النزعة السياسية وهكذا أدخلت القضية السياسية ضمن المسائل العقائدية .

ولقد تكرّر الخطأ نفسه لدى مصلحى العصر الحديث . إذ إنّ تطبيق القوانين الإسلامية كان ضرورة تنظيمية للمجتمع الإسلامى كما أنّ المسجد كان ضرورة بنائية لمجموعة من المصلين لكنهم جعلوها من ضروريات العقائد لدى المسلمين ، وقد أسفر ذلك عن أسوإ فساد فى تاريخ الإسلام المعاصر ، ففى كل دولة مسلمة انقسم المسلمون إلى فئتين فئة تضمّ الحاكم ومساعديه ، والأخرى تضم حملة لواء الحركة السياسية الإسلامية ، وكلاهما يخوضان حرباً لا يتوقع انتهاؤها ، ويستبيحان أرواح المسلمين وأعراضهم وأموالهم التى تعدّ حراماً على كلّ من الطرفين . إنّ هذه الحرب التى كان ينبغى أن تقوم ضدّ النزعات النفسية أو الكفار هى الآن تقوم فى أوساط المسلمين — فيما بينهم — على أوسع نطاق والغريب أنّ هذه الحرب غير الإسلامية قد نالت لقب (الجهاد الإسلامى) من قبل الجميع .

عـودةُ الفتنـة :

إنّ الخطر الفاحش الذى جاء نتيجة جعل الإسلام سياسة هو أن الفتنة التى أنهاها النبى وأصحابه بعد تضحيات بالغة ، قد عادت من

جديد فى التاريخ الإسلامى .

كانت السياسة قد امتزجت بالشرك فى العصور القديمة ، وكانت الأسرة الحاكمة تحكم الناس بعد أن ترسّخ فى قرارة نفوسهم العقيدة القائلة بأنهم أبناء الآلهة ، وأنهم شركاء فى ألوهية الربّ ، ومظهر دنيوى لآلهة سماوية . وبناء على ذلك كلما نهضت دعوة للتوحيد الخالص كان هؤلاء الحكام ــ الذين كان حكمهم يقوم على أساس عقيدة الشرك ــ يعتبرونها حركة تمرد ضد حكوماتهم ، ومن ثمّ كانوا يبذلون كل رخيص وغال فى سبيل قمع هذا النوع من النشاط . وبذلك أصبحت الدعوة فى انطلاقها عرضة للعقبات ، إذ كانت تشكّل معارضة صارمة للحكام ومن ثمّ يأمر القرآن بقوله : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله** ﴾ الأنفال : (39) والمقصود أن ينتهى شأن أهل الشرك الذى يشكل الفتنة للموحدين ويمنعهم من اختيار دين التوحيد ، وأن يتم فصل العقيدة الإلهية عن الإدارة السياسية ليصبح الدين كله نشاطاً ربانياً محضاً ، وليس نشاطاً سياسياً . فلا تبقى أية علاقة بين العقيدة وشئون السلطة ، وصيرورة الدين كلّه لله هو أن تنتهى حالة الفتنة بحيث لا تبقى السلطة حائلًا بين البشر وعقيدة التوحيد .

إنّ الانقلاب التاريخى الذى حققه النبى ــ ﷺ ــ وأصحابه قد أزاح الشرك من منصب السلطة وأنهى العلاقة بين العقيدة الدينية والإدارة السياسية للأبد . ومن ثمّ نشأت فرصة لأول مرة فى التاريخ بإمكانية الاستمرار فى الدعوة للتوحيد بدون مخاطرة الصدام مع الإدارة السياسية إلا أن المسلمين قد أعادوا تلك المشكلات فى طريق

نشاطات الدعوة تحت عناوين جديدة . وكان أول مثال على ذلك : جعل خلافة أهل البيت من قضايا العقيدة وهو ماحدث فى القرن الأول الهجرى .

والمثال الآخر نجده فى العصر الحديث تحت شعارات « المسئولية المطلقة للأمة الإسلامية تنفيذ القوانين الإسلامية كاملة » . وقد جعل هذا التصور الأعمال السياسية من قضايا العقيدة ومن ثمّ بدأ المسلمون يتناحرون مع الحكام باسم « تنفيذ قوانين الإسلام الكاملة » وأصبحت الإدارة السياسية ـــ تحت عنوان جديد ـــ معارضة للإسلام كما كان الوضع قبل خمسة عشر قرناً .

لقد ثبت من أحاديث الرسول أن أخطر شيء أحسّ به ونبّه إليه ـــ ﷺ ـــ مايطرأ بعده من تناحر المسلمين فيما بينهم . وقد ثبتت مصداقية هذا الإحساس بشواهد التاريخ والواقع ، إنها لحقيقة أن المسلمين منصرفون إلى التناحر فيما بينهم مما لا نجد له مثالًا عند الشعوب الأخرى ، بل إننا نرى الشعوب الأخرى متفوقة فى حروبها ضد الآخرين بينما المسلمون وصلوا إلى القمة فى التناحر والقتل وإراقة الدماء فيما بينهم ، ويرجع سببه ـــ إلى حد بعيد ـــ إلى ماحدث من جعل السياسة عقيدة ، ولواستقصينا الحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين فى الماضى لوجدنا أن وراءها يداً محركة لهؤلاء الذين سبق أن جعلوا من العقيدة أمر جعل الخلافة حقاً تحتفظ به أسرة بعينها ، وماعدا ذلك لا يجوز لأىّ واحد أن يحكم أو يسيطر على المسلمين ، ولقد أزاحت الحركة العلمية المعاصرة والفكرة الديمقراطية هذه العقيدة من عقول الناس ، إلا أنه فى الوقت نفسه نشأت نظرية تنص

على الوجوب المطلق لتطبيق القوانين الإسلامية وقد نفخت الروح من جديد وتحت عنوان جديد فى تلك الحرب الأهلية مما أحياها من جديد فى أوساط المسلمين .

ماالسبيل إلى تطبيق القوانين الإسلامية ؟

والنقص الذى يضاف إلى نظرية « الإسلام السياسى »هو أنها لا تنجح فى أىّ حال من الأحوال فى إقامة السياسة الإسلامية المزعومة . إنّ مثلها مثل أن نعقد العربة أمام الفرس بدلًا من أن تكون خلفه . إنّ الأشجار تنبت فى التربة الخصبة وهى لا تنبت فى الأرض الصخرية . وهكذا تماماً فإنه لا يتسنى تنفيذ القوانين الإسلامية دائماً إلا فى المجتمع الإسلامى الحقيقىّ . وعند عدم وجود المجتمع الإسلامى لا يمكن إنبات شجرة الإسلام السياسية من خلال حركات سياسية أو بفرض قانون الإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص .

إن الشخص الذى يحرص على الحصول على منصب ما هو — فى نظر الإسلام — ليس جديراً بذلك المنصب بل هو غير كفء له إلى حد كبير . وقد أثبتت الأحاديث الصريحة هذا المبدأ الشرعى ، وهذا بعض منها : « إن أخونكم عندنا من طلبه » (أبو داود) « إنّا والله لا نولّى على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه » (متفق عليه) « لا نستعمل على عملنا هذا من أراده » (متفق عليه) . « تجدون خير الناس أشدهم كراهية لهذا الأمر حتى يقع فيه » (متفق عليه) .

من خلال هذه الأحاديث تتجلى لنا صورة المجتمع المهيإ لتطبيق

النظام الإسلامى ، فهو ذلك المجتمع الذى خلت قلوب أفراده من حبّ السلطة ، وبلغ وجهاؤه مرحلة من الشعور النفسىّ الذى يدفعهم إلى الإقرار بعدم أهليتهم . وهو ذلك المجتمع الذى يتميّز أفراده بنظر ثاقب فهم — ينفون ذاتهم فى شأن تولى المناصب — وحين تثار مسألة الترشيح للمنصب — فى مثل هذا المجتمع — يبرز الأفراد الأكفاء من بين الآخرين ، وحين يتمّ تنصيبهم على مسئولية ما يرضى عنهم الجميع ، ويحدث عكس ذلك تماماً فى المجتمع الذى يدعى أفراده المقدرة ويظهرون الفخر . إنه لن ينشأ فى هذا المجتمع سوى التناحر والصدام بين أفراده . وبذلك لن تتأتى إقامة النظام الإسلامىّ فيه أبداً .

والصحابة الذين تجمّعوا حول النبى — ﷺ — كانوا هم أولئك الذين لم يحرصوا على المناصب ولم يتطلعوا إليها ومن ثمّ أمكن للنظام الإسلامى أن يطبّق على ذلك المجتمع ، وأن يواصل مسيرته بنجاح — وهذا النوع من الأفراد كانوا فى عهد الخليفة الأول والثانى أيضاً ، ولذا ظل نظام الإسلامى وقوانينه قائمة بصورة مستمرة إلا أن الوضع قد تبدّل غير الوضع فى عهد الخليفة الثالث والرابع ، إذ كثر أولئك الذين يدّعون الكفاءة لأنفسهم ، وبرز المدّعون للمناصب والخلافة ، فبدأت تلك الحروب الأهلية التى تسببت فى جعل النظام الإسلامى مشتتاً مترامى الأطراف .

إن المجتمع الذى لا يعرف أفراده كيف ينفون ذاتهم — حرصاً على أنفسهم — تكون وظيفة الحركة الإسلامية بينهم محاولة إيجاد أفراد جادين فى حمل مسئولياتهم الملقاة على عاتقهم غير حريصين على المناصب حتى يمكنهم أن يتصوروا أنفسهم بدون مناصب .

هذا هو السبيل الوحيد الذى يمكن عن طريقه إقامة نظام إسلامىّ ، أما ماعدا ذلك من استخدام سياسة المطالبة والمظاهرة في محاولة لفرض القوانين الإسلامية فكلّه هراء لا معنى له إلا فى إيجاد شقوق وتناحرات بين أفراد المجتمع ، فضلًا عن أن هذا النوع من الحركة يؤدى إلى تقوية السلطة القائمة ، ويزيد من شدة الفساد فى المجتمع بدلًا من إصلاحه .

إن دافع حب السلطة من أبرز الدوافع لدى الإنسان ، وهذا الذى جعل الحرب من أجل السلطة تظهر — بشكل مستمر — فى كل حقبة من الزمن . وثمة عدد كبير من أفراد المجتمع ممن يتطلعون للوصول إلى مكانة أو منصب ما بأية وسيلة . والتاريخ خير شاهد على أن المجتمع البشرى ينظم على الدوام مباريات المصارعة بين أولئك الذين يحرصون على السلطة أو المكانة . وإذا كان الوضع كذلك فإن أول مسئولية تلقى على عاتق الحركة الإصلاحية هى أن تدخل إلى الناس من باب قلوبهم لتخفف من حدة دافع حب السلطة لديهم . إن الذين يصرخون ويثيرون الشعب من أجل المطالبة بإقامة « الحكومة الإسلامية » دون أن يمهدّوا بتلك البداية الإصلاحية إلى درجة ملحوظة فهم لا يضيفون إلا فساداً . إذ إنّ هذا النوع من ملاحم المطالبة يعنى إضافة مزيد من الأفراد فى قائمة المطالبين بالسلطة ، وهذا يعنى أنّ مباريات السلطة التى تجرى بين الدنيويين عموماً سينضمّ إليها حشد من المتدينين أيضاً . وسيترتب على ذلك أمر آخر أكثر شناعة وهو أنّ الحرب القائمة من أجل السلطة والتى كانت

تجرى باسم السياسة أصبحت تجرى الآن باسم الدين ، وأصبح دين الله تجارة سياسية فى سوق المطالبة بالمكانة والعزة .

القدرة على اتخاذ قرار بدون اندفاع

إن تحويل الحركة الإسلامية إلى حركة سياسية أمر يثير الانفعال والاندفاع فى الناس فى حين أنّ إقامة الدين الإسلامى يحتاج إلى جماعة قادرة على اتخاذ قرار بدون أىّ اندفاع أو انفعال .

لنفترض أن ذلك النوع من سياسة الانفعال قد نجح فى إزاحة حكومة ما من السلطة إلا أنه سرعان ما يخفق فى بناء حكومة جديدة صالحة ، إذ إنّ ذلك هو نتيجة الفطرة ذاتها ، وهو ماحرم منه هؤلاء الأفراد الذين ليس لهم القدرة على إدارة الحكومة الإسلامية بوجه صحيح .

اتفق لى ذات مرة أنّ زرت مصنعاً ، فرأيت آلة قد ضغط صاحب المصنع على زرّ من أزرارها ، فبدأت عجلة الآلة (Fly Wheel) فى الدوران فوراً وبسرعة خاطفة فكانت العجلة تدور بأقصى سرعة فى اتجاه واحد ثم ضغط على زرّ آخر فسرعان ماغيّرت العجلة مسارها بدون أن تتوقف تقريباً ، وواصلت دورانها بنفس السرعة فى الاتجاه الآخر . هذه القدرة التى تجعل الآلة تنجح فى عملها هى نفسها ينبغى أن تتوفر فى السياسة الإسلامية لتكون ناجحة . فالسياسة الإسلامية يمكن أن يديرها أولئك الأفراد القادرون على ضبط أنفسهم إلى حد أنهم يستطيعون تغيير اتجاههم بمجرد أن يطرأ وضع جديد عليهم .

إنّ إقامة نظام إسلامى يتطلب أفراداً قادرين على تغيير اتجاههم فى وقت واحد فيمكنهم أن ينزلوا على قرار الصلح فور انتهاء المعركة المجنونة ، وأن يعفوا ويصفحوا رغم اتقاد نار غضبهم وانتقامهم . ويرضوا على أن يوضعوا فى قائمة المجهولين رغم مكانتهم القيادية العظيمة ، ويقدروا على اتخاذ قرار بارد وهم واقفون أمام حادثة مشتعلة ، ولهم القدرة على إبراز سلوك غير المنتصرين رغم كونهم فى غمرة النصر .

هذه الخصائص المتناقضة يمكن أن تنشأ فى هؤلاء الأفراد الذين مزقوا غشاء (أنا) بخوف الله تعالى . وقد وضعتهم محاسبة أنفسهم فى حالة يرون فيها ربهم كما يراهم ، وجعلهم إيمانهم ذوى شعور يضبطون فيه أنفسهم وليس العكس فالذين ينفذون القوانين الإسلامية هم حملة هذه الأوصاف . ولكن أخطر ضرر ينتج عن صيرورة الإسلام حركة سياسية هو إنهاء إمكانية نشوء هذا النوع من الأفراد البتة . فالقيام بحركة سياسية إسلامية بمثابة قلع الشجرة ــ باسم بناء « الوكر » ــ وهى الشجرة نفسها التى ينبغى أن يتمّ عليها بناء الوكر .

شمُوليّةُ نشَاط الدعْوة

إنّ الدعوة إلى الله هى رسالة المسلم التى تضمن نجاحه فى الدنيا والآخرة ، إنه لو أنجز تلك المسئولية لاستحق أن يبعث حين يبعث كأمة محمدية ، وهى العمل الذى يضمن حفظه ونجاحه فى الحياة . فإذا ما نبذ المسلم هذا النشاط أصبح لا يتمتع بقيمة عند الله كما هى

حال اليهود بعد نبذهم لهذا العمل . ولنطالع هذه الآية فيما يتعلق بهذا الموضوع : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ المائدة : (67) . إن الآية ــ فى ظاهرها ــ تخاطب الرسول ــ ﷺ ، لكنها تخاطب ضمناً الأمة بأسرها تبعاً للرسول ــ ﷺ ــ ويتبين من الآية أن تبليغ ما أنزل الله إلى الناس هو ما يطلبه الله من المسلمين ويدعوهم للقيام به . يقول الله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ البقرة : (143) .

وقد أوضح الحديث أيضاً هذه المهمة والمكانة بقوله « أنتم شهداء الله فى الأرض » إنها لحقيقة بأن شخصاً ما لووُكِلَ إليه شغل منصب فإن مستقبله يتوقف على أدائه للأمر المكلف به أو عدم أدائه له ، إذ إنه لو قام بواجبه على أكمل وجه لحظى بكل تقدير ومكافأة ، أما إذا لم يقم بواجبه ذلك ، وقام بعمل آخر أكبر حجماً من الأول فإنه لن يكسب رضى صاحب العمل ولن يحظى بأىّ تقدير منه .

فعلى المسلمين أن يحذروا هذا الإنذار الذى وُجّه إلى اليهود ــ الذين بشروا بهم ــ حين تركوا مهمة التبليغ ، وقاموا بأعمال أخرى نسبوها إلى الله : ﴿ **وإذا فعلوا فٰحشة قالوا وجدنا عليها ءاباءنا والله أمرنا بها قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ الأعراف : (28) . وقال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثٰق الذين أوتوا الكتٰب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم**

واشتروا به ثمناً قليلًا فبئس ما يشترون لا يحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ آل عمران : (187 - 188) .

إن الأمة التى تحمل كتاب الله ، تفقد مكانتها عند الله حين لا تقوم بإيصال هداية الله المنزلة ـــ حسب إرشاده ـــ إلى الآخرين ، إن نبذ الدعوة إلى الله والقيام بأعمال أخرى وإعطائها عنوان العمل المطلوب لا يضيف إلا جرماً وعصياناً ، ولا يمكن الأمة من أن تصبح موضع ثقة دينية أبداً .

الدعوةُ الإسلاميةُ هي الحلُّ لجميع القضايا

إن الله أمر بالدعوة وقال : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ وهذا يوضح بصراحة بأن حلّ المشاكل التى يواجهها المسلمون يكمن فى نشاط الدعوة . إن المسلمين يواجهون أو يتوقعون مواجهة مشاكل عدة من قبل الذين يحيطون بهم إلا أنهم ليسوا فى حاجة إلى استنزاف طاقاتهم لحلّ كل قضية على حدة . إذ إنّ المسلمين قد منحهم الله مفتاحاً لحلّ كافة القضايا التى تواجههم وهو « الدعوة إلى الله » .

إن المرء فى حياته يحتاج إلى قضاء ضرورات شتى لكنه لا يركز جهده على كل ضرورة بمفردها بل إنه يبذل قصارى جهده للحصول على ما يسمى بـ « النقود » لأنه يعرف أنّ النقود تضمن قضاء كل الحاجات وحل كل المشكلات ، إن النقود فى حدّ ذاتها شيء واحد ولكن حين يحصل المرء عليها فإنها ستقضى له كل ضروراته . إن هذه

الحالة تنطبق على الدعوة إلى الله أيضاً . إذ إن الدعوة هى الحلّ لجميع ما يواجهه المسلمون من المشاكل فى حياتهم . إنّ سرّ العصمة من الناس يكمن فى الدعوة إلى الله . ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ معناه أن معارضى المسلمين يكونون فى حالةٍ ـــ عقب بدء نشاط الدعوة ـــ لا يجدون معها الفرصة لتحقيق نواياهم ضد المسلمين وأن الطرق تسدّ عليهم نتيجة لنشاط الدعوة .

هذا هو الجانب السحرى للدعوة إلى الله والذى نجده فى إرشاد النبى ـــ ﷺ ـــ الذى أدلى به أمام الكفار فى مكة حيث قال : « كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » (البداية والنهاية / المجلد 2 ، ص (123) .

إن حياة النبى ـــ ﷺ ـــ نموذج شامل لتلك التعاليم القرآنية حيث إنه ركّز كل اهتماماته على الدعوة ولم يجعل القضايا التى واجهها هدفاً ينوى حلّه . ففتح الله أمامه طرق حلّ القضايا كلها من خلال الدعوة . مثلًا : ما حدث فى صلح الحديبية (٦ هـ) حين غمره المشركون بالقضايا والمشاكل حتى إنهم منعوه من زيارة الكعبة . فما الذى فعله النبى ﷺ لمواجهة هذا الموقف ؟ إنه قبل شروط المشركين ، ورضى باتفاقية الهدنة لعشر سنوات ، وهذا كان فتحاً لطريق الدعوة . لقد كانت القضية على مستوى الحرب إلا أن النبى بحث : الحل على مستوى الدعوة . وحين استتب الأمن بعد هذا الصلح أخذ النبى يبعث الوفود بقصد الدعوة إلى الرؤساء كما أجرى نشاط الدعوة فى القبائل العربية بكل قوة ومن نتائج هذه الخطوة أن عدد المسلمين بدأ يتضاعف بسرعة ملحوظة ، إذْ إنّ النبى عند

عودته من صلح الحديبية كان معه ألف وخمسمائة مسلم . وبعد سنتين أتم النبى ـــ ﷺ ـــ فتح مكة دون إراقة للدماء ومعه عشرة آلاف مسلم إنّ هذا هو نفس الأسلوب الذى ساعد المسلمين فى القرن السابع الهجرى ضد التتار حيث إن حجم جيش التتار كان إلى حدّ أنه قيل : « إذا قيل لك إنّ التتار انهزموا فلا تصدّق » ولكن القضية التى كاد السيف أن يعجز أمامها قد حلتها الدعوة ، إذ إن عدداً كبيراً من التتاريين دخلوا الإسلام بفضل مجهودات المسلمين الدعويّة ، فالذين كانوا قد خرجوا للنيل من المسلمين قد دخلوا تحت راية الإسلام وأصبحوا جزءاً من الأمة المسلمة .

إن القضايا التى طرأت على المسلمين فى الأدوار التالية ما هى إلا نتيجة لفقدان المسلمين عقلية الدعوة ، إذ إنّهم أخذوا يقومون بأنشطة أخرى باسم « المساعى الدينية » وواضح أنه ليس فى دنيا الله أية نتيجة لتلك الطرق المصطنعة ، إنك لو نحتَّ من الحجر ما يشبه حبة القمح وزرعته فى التراب فإنه لن ينبت نبات القمح من هذه القطعة الحجرية ، وإن بذلت كل جهدك فى صنع هذه القطعة لتكون شبيهة بالقمح . إن محاصيل القمح تخرج من حبات القمح نفسها ، وليس من قطعة الحجر التى تشبهها . وسنوضح هذا الأمر هنا ببعض الأمثلة :

نتائجُ الغفلة :

١ ـــ إن قضية الاستعمار تعتبر من أهم القضايا التى برزت لدى المسلمين المعاصرين. فالاستعمار لم يهزم المسلمين فحسب بل أوقعهم فى ورطة ومشاكل شتى ، فلو أن الدعوة كانت تجرى فى

أوساط الإنجليز لكان من الممكن جداً أن تتحوّل إنجلترا ــ على أفضل وجه ــ إلى تركيا الثانية . ويكفينا دليلًا على وجود الاستعداد لقبول الإسلام بين الإنجليز بأن أفراداً منهم دخلوا إلى الإسلام فى فترة سيطرتهم ، إلا أنه فى السنوات الماضية لم تنشأ فى المسلمين عقلية تتوجه إلى دعوة الإنجليز ، حتى إنه لو تقدم أحد باقتراح من هذا القبيل قيل عنه بأنه عميل للإنجليز وينوى إزاحة المسلمين عن جبهة التحرير والجهاد .

على أننى لا أريد أن أذكر غفلتنا بهذا الشأن فى العصر الحديث ، وأشير هنا إلى موضوع للكاتب « جبريل رونى » الذى صدر فى الصحيفة اللندنية ، (Sunda . Times) فى 28 . أكتوبر 1978 م ، وجبريل رونى هو مصنف كتاب طبع من جديد باسم « إنجليز تاتارخان »(*) ، وقد كتب المصنف الإنجليزى مشيراً إلى بعض الوثائق التاريخية :

" For Acrucial Moment in the Thirteenth Century England Faced the Prospect Of being totally Converted - lock Stock and barrel - into amuslim Country " .

فى فترة حرجة من القرن الثالث عشر قد كان من المحتمل أن تتحول إنجلترا كليّاً إلى دولة مسلمة ، وخلاصة الأمر ، أنّ حاكم

---

* Gabriel Ronay , The Tartar Khan's Englshman , Cassel , London , 1978 .

إنجلترا ــ آنذاك ــ جان لاك ليند (١١٦٧ ــ ١٢١٦) كان قد نَفَرَ مِنَ المسيحية بسبب سلوك الكنيسة ، وقد عقد العزم على أن يسلم هو وجميع أفراد شعبه وأن يقبل طاعة خليفة المسلمين ، فبعث فى سنة ١٢١٣ م بوفد سرىّ يضم ثلاثة أشخاص إلى أمير المؤمنين وقتذاك الناصر لدين الله . فشقّ الوفد طريقه إلى مراكش واتصل بالأمير الناصر لدين الله وقدّم له رسالة الملك جان ، وأطلعه على رغبة الملك وحرصه على قبول الإسلام على يد الأمير ، إلا أنّ الناصر لدين الله لم يكن لديه مزاج الدعوة والتبليغ . فلم يستطع أن يقبل هذا العرض مما خيّب آمال الوفد فعادوا إلى وطنهم ، وحين أُخبر الملك بهذا النبإ بكى بكاءً شديداً ، فلو أدخل الأمير ملك إنجلترا إلى الإسلام لكانت بلا ريب إنجلترا كلّها مسلمة ، ولتحوّل بعد ذلك مجرى تاريخ الاستعمار ، ولكان للنهضة الأوروبية الثانية تاريخ آخر . ولتحوّل الذين يتصدون لإسقاط راية الإسلام ــ فى القرن الحاضر ــ إلى حملة لواء الإسلام ، حتى إسرائيل التى أحكمت قبضتها على العالم الإسلامى ما كان ليكون لها أىّ وجود على صفحات التاريخ .

صحيح أن إسرائيل نشأت فى حضانة الإنجليز إلّا أن أمريكا ــ اليوم ــ هى دعامتها الأولى وقضية إسرائيل قد أثرت فى العالم الإسلامى إلى حدّ بعيد . مما دفع العالم الإسلامى إلى التحالف ضدّها ، إلا أن مساعى المسلمين وجهودهم التى بذلوها ضد إسرائيل ــ طيلة ثلاثين عاماً ــ قد أخفقت وباءت بالفشل ، إننا لا نتفاءل كثيراً فيما يتعلق بشأن قبول اليهود الإسلام بالرغم من أننا ملتزمون بإيصال الدعوة

إليهم لإتمام الحجة عليهم ، إنّ الأمل فى إقبال اليهود على الإسلام ــ فى عدد ملحوظ ــ أمل ضئيل جداً ، ولكن الجدير بالذكر ــ هنا ــ أن نشاط التبليغ يمكن أن يثبت فعاليته ــ هنا ــ أيضاً ، ليس عن طريق تبليغ اليهود مباشرة ولكن عن طريق الوساطة ، وتلك إمكانية كانت متوفرة لدى المسلمين إلا أنهم لم يتبنّوا هذا الأسلوب بسبب فقدانهم مزاج الدعوة . إنّ أسلوب الوساطة يعنى تبليغ أمريكا ، ومن المعروف أنّ أمريكا هى الدعامة الأولى لإسرائيل ، وهى القوة التى نفخت فيها روح الحياة .

إنّ أمريكا باعتبارها مجتمعاً علمياً كان من الممكن أن تصبح حـ لًا ناجحاً لنشاط الدعوة إلا أنّ نشاط المسلمين الدعوىّ فى أمريكا ظلّ فى درجة الصفر ، فى حين أنّ الهندوسية والبوذية وجدتا فيها أرضاً خصبة لأنشطتها .

وأودّ أن أذكر هنا أنّ السيد جمال الدين الأفغانى حين كان فى باريس سنة ١٨٨٤ مع تلميذه المفتى محمد عبده ، قال السيد جمال الدين لتلميذه : « إن أهل أوروبا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه ، فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعاً من حيث يسر العقائد وقرب تناولها ، وأقرب من أهل أوروبا إلى قبول الإسلام أهل أمريكا لأنه لا يوجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة ولا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوروبيين » جمال الدين الأفغانى / تأليف : محمود أبو ريه، ص ٥

وحين سمع محمد عبده هذه العبارات من أستاذه قال له : إذن لماذا

نحن لا ننبذ المشاحنات السياسية وننصرف إلى الدعوة والتبليغ فى أمريكا ، فاعتبر جمال الدين الأفغانى ــ بسبب ذوقه السياسى ــ هذا الاقتراح تافهاً ، وردّ عليه قائلًا : « إنما أنت مثبط » .

إنّ السيد جمال الدين الأفغانى كان ذا مقدرة نادرة ، فلو أنّه ركّز كلّ جهوده فى سبيل الدعوة والتبليغ لكان بإمكانه تحقيق نجاح كبير فى أمريكا وتوسيع أنشطة الدعوة فيها . ولو أنّه بدأ بهذا العمل قبل مائة عام فلا نستغرب أن تكون أمريكا اليوم دولة مسلمة أو بعبارة أخرى ، لكان ذلك إعادة للتاريخ بشكل جديد ، أى إعادة لما حدث بُعيد إسلام ستة آلاف من قبيلة هوازن ، وهو إلقاء ثقيف لأسلحتهم[1] .

إن المشكلة الخطيرة التى يعانى منها مسلمو اليوم هى تخلفهم العلمى والصناعى ، ومن نتائجه أن المسلمين رغم تضحياتهم النادرة التى حررتهم من سيطرة الغرب السياسية ، عادت إليهم تلك السيطرة فى صورة سيطرة صناعية ، لدرجة أن ما تحصل عليه الدول المسلمة المصدرة للنفط من عملات صعبة تعود مرة أخرى ــ بشتى الطرق ــ إلى تلك الدول الغربية التى فرضت سيادتها على كافة أنشطة العالم الإسلامى نظراً لتقدمها العلمى والصناعى .

وفى بادىء الأمر لاتبدو لهذه القضية أيّة علاقة بنشاط الدعوة والتبليغ . إلا أنها فى الحقيقة ذات علاقة وثيقة وعميقة بهما ، إذ إنّ

---

(١) ظهور الإسلام .

مبدع العلم والصناعة أخيراً هو الإنسان ، ومعنى ذلك أننا لو استطعنا السيطرة على الإنسان امتلكنا الصناعة والعلم آلياً . إنّ النبى لم يكن يعرف الكتابة ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾ العنكبوت : (48) إلا أنه بفضل دعوته دخل الإسلام أناس يعرفون الكتابة ، وهم الذين سجّلوا ما أنزل عليه من الوحى فى شكل مكتوب . ويمكننا أن نمثّل فيما يتعلق بهذا الموضوع باليابان :

إنّ اليابان ــ نظراً إلى تطورها الصناعى والعلمىّ ــ تعدّ اليوم من أولى الدول المتقدمة . والعجيب أنه كان فى اليابان إمكانيات خارقة ــ فى أواخر القرن التاسع عشر ــ لنشر الإسلام وإشاعته إذ إنّ ملك اليابان ميجى (١٨٦٨ ــ ١٩١٢) كان متخوّفاً من دخول المسيحية إلى اليابان ، ورأى أن المسيحية قد دخلت تحت ستار الدين ، وهى فى الحقيقة العميلة الأولى للقوى الاستعمارية ، لذلك فقد دبّر لنشر الإسلام فى اليابان ليحول دون دخول المسيحية إليها . وكان يرى أن الإسلام لا يشكل ضرراً بالنسبة لها ، بينما دخول المسيحية كان يعنى ــ عنده ــ فتح باب الاستعمار إليها .

وفى عام (١٨٩١ م) أوفد الملك ميجى إلى سلطان تركيا عبد الحميد الثانى وفداً رسميّاً يحمل رسالة من ملك اليابان يطلب فيها من السلطان أن : أرسلوا مبلغيكم إلى اليابان لينشروا فى أوساط اليابانيين تعاليم الدين الإسلامى لتقوم بذلك علاقة معنوية بين اليابان والعالم الإسلامى .

ولكن السلطان لم يكن لديه مزاج الدعوة والتبليغ وكذلك من حوله من العلماء . وكانت النتيجة هى الردّ على الرسالة بالشكر والامتنان ، ولم تكن أية بداية لأىّ نشاط بهذا الشأن . إنها فرصة لو تمّ استغلالها ، وبدأت أعمال التبليغ فى (١٨٩١ م) فى اليابان كان يمكننا أن نقول بكل ثقة بأن اليابان اليوم كانت دولة مسلمة ، وكونها دولة مسلمة يعنى سدّ ثغرة التخلف فى حقل الصناعة والعلم لدى المسلمين .

لنأخذ قضية المسلم الهندى ، فهى أيضاً نتاج غياب الدعوة والتبليغ . فلم تكن فى الهند طيلة تاريخ الإسلام ــ أية محاولات جادة فى حقل الدعوة والتبليغ ، فالذين انضموا إلى حلقة الإسلام كان معظمهم قد دخلوا عن رغبة شخصية وليس نتيجة مساع دعوية حقيقية بذلها المسلمون . إن الكثيرين قد اعتنقوا الإسلام على أيدى الصوفيين إلا أنه من الصعب القول بأنّ حوادث تغيير الدين هذه كانت فى حد ذاتها نتاج محاولات التبليغ . إنها كانت ــ غالباً ــ بناءً على أوضاع قديمة ، حيث لم يكن ثمة أىّ تعصب دينى ، وكان الناس ــ أيضاً ــ يقدمون على تغيير دينهم لأسباب بسيطة . يقول جواهر لال نهرو : « إن دخول الإسلام إلى الهند كان ذا أهمية بالغة بالنسبة لتاريخها فإنه قد أزاح تلك العيوب التى كانت قد نشأت فى المجتمع الهندوسى بسبب الفروق الطبقية والجنسية وحب حياة العزلة المفرط ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة العملية بين المسلمين قد تركت أثراً عميقاً فى عقول الهندوس خصوصاً هؤلاء الذين حرموا من حق المساواة فى المجتمع الهندى ، إنهم قد تأثروا إلى حدّ

كبير ، مما أثار فى البلاد ضجة بأبعاد مختلفة ، إذ إن الكثيرين قد ارتدوا عن دينهم وانضموا إلى هذا الدين الجديد ، وكان أغلبهم من الطبقة الدنيا .

والجدير بالملاحظة — هنا — أنّ الهندوس — عموماً — يسلمون بشكل جماعى ، ويمكننا من خلال هذا التصوّر ، معرفة عمق الأثر الذى حصل فى تلك الجماعات ، وقد كان هناك من قام بتغيير دينه من أبناء الطبقة الراقية ، وقد تمّ ذلك فى صورة فردية ، ولكن فى المقابل فإنّ الجنسيات التى كانت تنتمى إلى الطبقة الدنيا فى أىّ منطقة ، كانت تعتنق الإسلام على هيئة جماعات ، وربما كانت القرية كلها تعتنق الإسلام » ويمضى جواهر لال نهرو قائلًا : « حينذاك ، سواء أدخل الناس الإسلام بشكل جماعى أو انفرادىّ ، فإن الهندوس لا يعارضونهم ، ولم يكونوا يحفلون بمن يرتد عن دينه ليعتنق ديناً آخر أو يغيّره ، إلا أن اليوم قد تغيّر الوضع غير الوضع . فلو دخل أحد الإسلام أو المسيحية فإن نار الحزن والغضب تتأجّج من أجله فى كل الأطراف ، إنّ هذه الجلبة والضوضاء التى تثار اليوم هى نتاج العوامل السياسية فلو ارتد أحدٌ ودخل ديناً آخر فإنه يعدّ ممن يهدفون إلى تقوية ذلك الدين ، وزيادة الفرص أمامه ليحصل على أصوات فى الانتخابات السياسية »[1] .

ثمة حوادث تاريخية عديدة تثبت أنّه لو كان فى الهند محاولات جادة لتبليغ الإسلام لكانت هناك إمكانية خارقة لنشر الإسلام

---

(١) د سكورى آف انديا ، ١٩٤٥ م — ص (٨١ — ٢٧٩) .

وتبليغه ، ففى سنة (١٨٥٧ م) مثلًا : حين بدأت عملية الاعتقال بُعَيْد جهاد الاستقلال ، اختفى عدد كبير من علماء المسلمين ، واقتحمت جماعة منهم غابات الهماليا ، وانشغلوا فى الدعاء ، والتعاويذ . وقد تأثر بهم سكان تلك المنطقة ، فدخلوا إلى الإسلام بشكل هائل . ويوجد الآن فى القرى الصغيرة المتناثرة فى المنطقة الجبلية الممتدة من آسام إلى كشمير سكان مسلمون بأعداد هائلة ، بقيت دليلًا على ذلك الحدث كما دخل العلماء أيضاً إلى مناطق البنغال الشرقية المتخلفة باعتبارها مناطق يصعب على الإنجليز الدخول إليها لعدم توفّر خطوط المواصلات ، فاتخذ كل منهم زاوية ، ولزموا الصمت ، إلا أنهم قد أثّروا كثيراً فى تلك المنطقة مما أسفر عن إسلام الكثير من أبنائها ، إن هذا النشاط لو تمّ بشعور حقيقىّ تحت تخطيط وتنسيق للجهود لكان للدولة تاريخ غير الذى نراه ، وكان للمسلمين حال غير هذه الحال .

لقد نشأت فى العصر الحديث حركات كثيرة حتى إن الجو يكاد ينفجر من ضجيجها إلّا أنها لم تؤد تلك المسئولية التى أكدّ الله على فرضيتها ، ألا وهى إيصال دين الله إلى كافة عباده ، وبالرغم من عدم وجود أية محاولات من قبل المسلمين نجد الإسلام ـــ دين الفطرة ـــ يشقّ طريقه إلى قلوب الناس ويسكنها ، إلى حدّ أنه لا ينقضى يوم من الأيام فى ربوع العالم إلّا وتصادفنا حادثة دخول عبد من عباد الله إلى الإسلام .

إنّ المسلمين لم يوفقوا بعد لإقامة مؤسسة تقوم بإحصاء المسلمين

الجدد ، ونشر الإحصائيات . ولكن هناك المؤسسة الدينية العالمية (World Religions Institute) قد أصدرت ونشرت بعض الإحصائيات ورد فيها : أنّ السنوات الخمس من (١٩٧١ م) إلى (١٩٧٥ م) قد دخل فيها زهاء خمسمائة ألف شخص إلى الإسلام ، وهذه الإحصائيات تخصّ أوروبا وأمريكا فقط . وفى إفريقيا ــ بالرغم من تخلف المسلمين وتقدم الحركة التبشيرية المسيحية التى تبذل جهوداً شاقّة لتحقيق أهدافها ــ لا يقلّ عدد المقبلين على الإسلام من الذين يقبلون على اعتناق المسيحية . إنّ السيد (خشونت سنكة) رئيس التحرير السابق لمجلة (السرتيد ويكلى) كتب حين سجل وجهة نظره ــ خلال قيامه بجولة فى إفريقيا ــ قائلًا : خلال الأيام الأخيرة لجولتى فى كينيا وأوغندا ، استقصيت الوضع حول حركة التبشير وحركة الدعوة الإسلامية الماثلتين فى أوساط القبائل الزنوج ، وقد اعترف المسيحيون أنّ السود الأفارقة ــ رغم ذكرياتهم المأساوية التى لاقوها من العرب ــ يعتنقون الإسلام بأعداد كبيرة أكبر من عدد المعتنقين للمسيحية[١] .

ورغم أننا لا نملك إحصائيات قاطعة ، ولكننا لا نبالغ إذا افترضنا ، أن المعدل السنوى لمعتنقى الإسلام اليوم ، وبدون أية محاولات دعوية خاصة ، يفوق « مائتى ألف نسمة » ولو تمّ ربط العلاقة مع هؤلاء المسلمين الجدد ، وعرفت منهم الخاصيّة أو الميزة التى أثرت فيهم ودفعتهم إلى اعتناق الإسلام ، واتخذت الخطط

---

(١) السرتيد ويكلى آف انديا ــ ٧ جولاى ١٩٧٤ م / ص ٢٧ .

على ضوء تلك المعلومات للقيام بنشاط الدعوة على المستوى العالمى ، لو تمَّ كل ذلك لكان من الممكن أن يتحقق حلم إعلاء كلمة الإسلام فى غضون عشر سنوات ، والذى كنا نتطلع للحصول عليه بطرق أخرى خلال سنين إلّا أنه أمل بعيد لا يمكن أن يحدث(1).

البعد النظرى للإسلام :

فى سنة ١٩٤٨ م ، كان أخى عبد العزيز خان (١٩٢٠ م) قد أصيب بألم حادٍ فى بطنه ، وقد تمّ إحضار الطبيب المسئول عن الجراحة فى منطقة (أعظم كره) ويدعى الدكتور أنيس ، وعند إجراء الفحوصات صرّح بأن الألم كان بسبب التهاب الزائدة الدودية ، ولا سبيل إلى علاجه إلا بإجراء عملية جراحيّة لاستئصالها ، وقد أشار علينا بنقله إلى (لكهنو) فوراً . لكننى قلت له : إن التهاب الزائدة الدودية يعتبر هذه الأيام مسألة بسيطة ، فلماذا تنصحنا بنقله إلى (لكهنو) ولا تجرى له العملية الجراحية فى مستشفى (أعظم كره) ؟! سكت الدكتور أنيس هنيهة بعد أن استمع إلى كلامى ، ثم قال : صحيح ماتقول ، ولكن المشكلة أنه ليس لدينا يد مجربة ، مثلًا إذا ما فتحنا البطن وأجرينا الجراحة ، ثم حان وقت لمّ الجرح عن طريق استعمال الخيط ، حينئذ سنكون فى حاجة ماسة إلى رجل مجرّب يعرف بنفسه أى نوع من الخيوط

---

(1) هذه المقالة محاضرة ألقيت فى ندوة المجاهدين بمنطقة ملابور فى ١١ آذار / مارس ١٩٧٩ م .

يستعمل ، إننا لو احتجنا إلى خيط رقيق والرجل الذى معنا [المساعد] قد ناولنا خيطاً غليظاً بعد أن أدخله فى الإبرة ، فإن ذلك قد يؤدى إلى فساد كل شيء ، إنها لحظة حرجة للغاية ، وليس لدينا الوقت الكافى لتفحص أعمال صاحبنا أو نصحه ليغيرّ الخيط الغليظ الذى قدمّه لنا .. فهو يجدر به أن يعرف ما يجب عمله من الأعمال التى تطرأ بين الحين والآخر ، وينبغى أن يدرك جيداً مساهمته فيها . وقد أنهى مسئول الجراحة حديثه قائلًا : « يجدر بمساعدى أن يعرف ما الذى سأفعله الآن » .

إن هذا ينطبق تماماً على ما يتعلق بإصلاح الأمة ، فتنشأ أوضاع ــ على مر العصور ــ لدى كل قوم لتفتح أمامهم سبيل الوصول إلى أهدافهم . إنّ هذه الأوضاع لن تأتى معلنة على مكبر الصوت إنها تندمج بعالم الواقع فى صمت ، وهى بمثابة الامتحان لأفراد الأمة وهل يتمتعون بحساسية وشعور إلى درجة أنهم يدركون واجبهم الذى ينبغى أن يؤدوه فى المشروع الربانى !

إنّ أفراد الأمة لو استطاعوا ــ بفراستهم ــ أن يتعرفوا على دورهم ، فإن ثلاثاً وعشرين سنة تكفيهم للوصول إلى قمة النجاح ، وإذا ما أغفلوا هذه الإشارات الإلهية ، ولم يفهموها ، فسوف لن تثمر ضوضاؤهم وجلبتهم بوسائل أو طرق أخرى أية ثمار ولنضرب لذلك مثلًا : إنّ الدعوة التى قامت فى مكة تحت إشراف النبى ــ ﷺ ــ قد بلغت أطراف الجزيرة خلال حوادث مختلفة ، حتى إنّ عشرات الآلاف من العرب كانوا قد أيقنوا بحقيقة الإسلام بقلوبهم ،

ولكنّ الذى حال بينهم وبين إعلان إسلامهم هو أنّهم كانوا يتخوّفون من إعلان إسلامهم ، لأنّ ذلك بمثابة إعلانهم الحرب على قريش كلّها ، لقد كانت فترة حرجة للغاية ، لأن قريشاً قد زادت فى تعذيبها واضطهادها للمسلمين ، وهم قد صدوا المسلمين عن المسجد الحرام ، وشردوهم بعيداً عن أهلهم ومنازلهم وضيقوا عليهم معاشهم ، وخاضوا حروباً ضارية لاستئصالهم من فوق الأرض ، لقد جعلوا الوضع متوتراً وسيئاً للغاية حتى إنّه كان من الممكن أن يسفر عن تأجيج نار الحقد والعداوة فى قلوب المسلمين ضدّ قريش إلّا أنّ الصحابة قد أدركوا الإشارات الإلهية بإرشاد النبى — ﷺ — وعرفوا أن دورهم فى الخطة الإلهية هى التزام الصبر فحسب ، وليس إظهار الشجاعة فى ساحة القتال ، ومعنى ذلك إنهاء وضع القتال والجدل لتمكين الناس من أن يتقدموا للدخول فى الإسلام بعد أن أمنوا من حرب قريش . فأغمد الصحابة سيوفهم ، وقبلوا بمطالب قريش الظالمة ، وتعاهدوا على هدنة لمدة عشر سنوات ومن ثمّ التزمت قريش بألّا تحارب المسلمين أو من يعتنق الإسلام حديثاً .

إن صلح الحديبية كان بمثابة إدخال أنفسهم فى (مشروع الله) ، ولذلك أثمر ماأثمر من نتائج ، وكان بمثابة تحمل مالا طاقة لهم به ، إلا أن المسلمين حين فعلوا ذلك متوكلين على الله بدأت نتائجه تبرز شيئاً فشيئاً ، وحين شاع خبر اتفاقية الصلح التى عقدت بين المسلمين وقريش — والتى كانت تنص على عدم خوض الحرب من الطرفين — بدأت القبائل — التى تأثرت بالدعوة — تعتنق الإسلام آمنة من هجوم قريش عليها وأخذ عدد المسلمين فى ازدياد متوالٍ ،

فبعد أن كان عدد المسلمين عند صلح الحديبية ألفاً وأربعمائة نسمة زاد بُعَيْد انعقاد الصلح حتى وصل فى غضون سنتين إلى عشرة آلاف نسمة . وتحولت موازين القوة لصالح المسلمين حتى خضعت مكة – مركز العرب – لسيطرة المسلمين بمجرد الرعب وبدون إراقة قطرة من الدم .

تلك هى خطة الله ، والتى برزت فى عالمنا المعاصر بشكلها الحديث ، لقد ظل المسلمون طوال السنوات المائة الماضية فى حربهم وتناحرهم ضد الشعوب الأخرى ، ولعلّ مالقيه المسلمون منهم من قسوة ومرارة هو الذى خلق فى المسلمين طبيعة عدائية انتقامية أدت إلى خوضهم الحرب ضدهم مما دفع الشعوب الأخرى إلى مزيد من العناد إزاء المسلمين ، إلا أنه فى نفس الوقت ــ وحين لم يصل ذلك الوضع المتأرجح إلى نتيجة حاسمة ــ برزت حركة أخرى فى ربوع العالم ، ألا وهى الحركة الفكرية التى نشأت كرد فعل للنظرية الإلحادية فى القرن التاسع عشر . إذ إنّ كلًّا من دراسة مقارنة الأديان ، وخيبة الأمل فى الحضارة الصناعية ، والتساؤلات حول الأديان فى توافقها مع العلم قد أنشأ عقلية جديدة فى أنحاء العالم . فالناس بدءوا يتطلعون إلى دراسة التعاليم الدينية من جديد ، إلا أن الإسلام لا يزال متخلفاً فى قائمة الرغبات الدينية الجديدة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى الخصومات الكلامية وغير الكلامية التى خضناها ضدّ الشعوب الأخرى فى ربوع العالم .

لقد بدأت الإمكانات الجديدة المواتية منذ مئات السنين بلسان ربانىّ صامت ، معلنة أن المسلمين اليوم فى حاجة إلى « صلح

الحديبية » مرة أخرى .

إنّ الدين لا يطالبنا ــ الآن ــ بالمبادرة القتالية ، بل هو فى حاجة إلى تراجع وصبر وتحمّل إن الدين يطالبنا ــ الآن ــ بإنهاء كافة أنواع الأنشطة السياسية والاحتجاجية ضد الآخرين بشكل كلّى ، حتى يتلاشى جوّ التنافس بين الطرفين ، ويمكّن الناس من دراسة الدين فى جو هادىء ، وبهذه الطريقة سيتحوّل معارضو الدين إلى المدعوين إليه ، وستبدأ المصداقية العلمية للإسلام ــ والتى زودنا بها العصر الصناعى ــ فى عملها ، ولا ينتهى جيل واحد حتى تتحقق مصداقية ذلك التنبؤ الذى أدلى به النبى ــ ﷺ ــ فى قوله : « لا تبقى خيمة ولا مكان إلا دخلها الإسلام » .

إمكانيات جديدة :

نورد بعض ما نشأ من إمكانيات جديدة فى مجال الدعوة والتبليغ فى العصر الحديث :

١ ــ اكتشاف أن جميع الكائنات من أصل مادة واحدة ، وكلها خاضعة لقانون واحد ومن ثمّ أصبحت حقيقة التوحيد جلية قريبة من العقل أكثر من ذى قبل .

٢ ــ وثمة اكتشافات تقرّب فهم الآخرة إلى العقل ، مثلًا جهاز التلفزة يقرّب لنا إمكانية وجود عالم آخر كامن فى عالم الدنيا رغم أننا لا نراه بأعيننا الظاهرة .

٣ ــ اكتشاف أن الإنسان ــ باعتبار محدوديته ــ يستطيع

الوصول إلى علم جزئى فحسب ، وبذلك تثبت مصداقية الوحى والإلهام .

٤ ــ لقد أثبتت دراسة مقارنة الأديان فى العصر الحديث أنّ الإسلام هو الوحيد من بين سائر الأديان الذى حظى بالمصداقية التاريخية .

٥ ــ المبادرة التى كان الإسلام قد بدأها أثناء انطلاقه لفصل العقيدة عن المؤسسات السياسية ، قد وصلت بها الحركة الفكرية الغربية إلى الكمال ، ومن ثمّ يمكن المضى بالدعوة الإسلامية قدماً دون مواجهة العراقيل التى كانت تعترض طريق الدعوة من قبل بسبب سلطة مشتركة .

٦ ــ إن الحركة الديمقراطية المعاصرة قد أثبتت أن حرية الفكر والتعبير هى حق طبيعى للإنسان ، ومن ثمَّ فهى قد منحت ــ لأول مرة فى التاريخ ــ فرصة للدعوة لتمضى قدماً بدون أية مصادمة سياسية .

٧ ــ إن اكتشاف آلة الطباعة وتطور وسائل المواصلات وظهور الوسائل الحديثة فى حقل الإعلام العام ، قد منحت فرصة لأن ينتشر الإسلام بشكل واسع مستخدماً هذه الوسائل الحديثة للتبليغ والدعوة له .

٨ ــ إن النظم الاقتصادية الجديدة قد أوصلت المسلمين إلى كافة أرجاء العالم ، ومن ثمّ يمكن البدء بالدعوة على مستوى عالمى ، وبتنظيم إسلامىّ ، وهذا لم يكن متيسراً قبل اليوم .

٩ ــ إن الكثير من الحقائق العلمية والمعرفية المكتشفة فى العصر الحديث ممّا يؤيّد الإسلام يمكن بواسطتها بناء صرح علم الكلام الإسلامى الجديد استناداً إلى حقائق خالصة ، والذى سيكون أقوى وأقدر بكثير من علم الكلام القياسى القديم .

١٠ ــ إن إنسان اليوم وقف على عتبة خيبة الأمل بعد سعى طويل وشاق للحصول على فلسفة صحيحة ، وحياة أفضل مما أنشأ إمكانية أن يقدّم الإسلام كأفضل وأصحّ نظرية يجد فيها الإنسان ما ينشده ثم لا يسعه إلا أن يعتنقه .

بعــض الأمثلــة :

فى مطلع القرن العشرين كان قد اتضح أنّ أوروبا كانت تعانى من فراغ رغم تقدمها وتطورها المادّى ، وقد بدا لها أنّ العلم والتكنولوجيا قد زوداها بالآلات ووسائل النقل إلّا أنها لم تعثر على فلسفة الحياة التى تزودها بالسعادة الحقيقية .

قال الفيلسوف الإنجليزى « برادلى » ١٩٢٤ ــ ١٨٤٦ ، فى الربع الأول من القرن الحاضر : « إن العالم فى حاجة إلى دين جديد » .

ولقد ظهرت فى الدول العربية شخصيات تذكّر المسلمين بأنّ الأمانة الربانية التى فى حوزتهم يمكن أن تملأ الفراغ فى الفكر الأوروبىّ ، فينبغى لهم أن يقوموا بأدائها وأن يبلغوها إلى العالم ،

وبذلك يؤدون الفريضة التى فرضها الله عليهم . إن لاردبى ــ ايج ــ لوتهين (١٨٨٢ ــ ١٩٤٠ م) كان قد حضر إلى الهند قبل أربعين سنة وكان يرأس حفلة توزيع الشهادات التى أقيمت فى جامعة (عليكرة) الإسلامية سنة ١٩٣٨ م ، وقال فى خطاب ألقاه بالمناسبة : « إنّ أوروبا لم تكتشف بعد حلًا مقنعاً للقضايا السياسية والحياتية والأسرية ، ونسمع دعوى سيادتكم أن الإسلام أسلوب الحياة الكامل ، وفيه حل شاف للقضايا الاجتماعية ، وأنا أقترح عليكم أن تذهبوا إلى الدول الغربية وتزودوا سكانها بالتعاليم الإسلامية » [خطاب حفلة توزيع الشهادات]

ولقد كتب البرفيسور (منتغمرى وات ــ ١٩٠٩) فى كتاب ألفه عن شخصية نبينا محمد ــ ﷺ ــ قائلًا : « إنّ المسلمين يعلنون أن محمداً هو مثال الوفاء والأخلاق الإنسانية جمعاء ، وهم بذلك يدعون الرأى العام العالمىّ إلى الحكم على محمد ، ولم تنل هذه المسألة ــ حتى الآن ــ سوى اهتمام ضئيل فى الرأى العام العالمىّ ، ولكن هذه المسألة بسبب قوة الإسلام يجب أن تكون موضع اهتمام . فهل نستطيع أن نستخلص من حياة محمد وتعاليمه مبادىء قادرة على منح عالم المستقبل نظاماً خلقياً موحداً ؟ لم يحصل العالم حتى الآن على إجابة لهذا السؤال ، وإن كل ما يبذله المسلمون ويقولونه فى سبيل ادعاءاتهم حول محمد يمثل خطبة افتتاحية للدفاع لم تقنع سوى القليل من غير المسلمين ، وتبقى القضية مع ذلك بأكملها حتى هذه اللحظة . ما هو رد الفعل الذى يبرزه العالم حول محمد ؟ إنما يتحدد ذلك بمدى ما يفعله المسلمون من أجل محمد ، ولا تزال

لديهم إمكانية ليُعرض محمد ـــ بشكل أفضل وأكمل ـــ على العالم ، وهل يمكن للمسلمين أن يثبتوا أن حياة محمد ـــ ﷺ ـــ حياة مثالية بالنسبة لأخلاقيات العالم الموحّد ؟! لو أن المسلمين أحسنوا عرض قضيتهم ودفاعهم لوجدوا فى أوساط المسيحيين أناساً مستعدين للإصغاء إليهم » ص 333 .

هكذا يمكن سرد أمثلة عديدة ولكن ما أعجب مافعله المسلمون ، إنهم ظلوا يقضون عمرهم فى التناحر السياسى مع الشعوب الغربية ، ولقد كانت الغلبة ـــ فى هذا المجال ـــ دائماً لصالح الغرب ، ولكن الحقل الفكرىّ والاعتقادىّ الذى هو نقطة الفراغ بالنسبة للغرب ، لم يبذل المسلمون فيه أيّة مجهودات ، إنّ هذا الضرب من الحماقة والجهالة ربما لا نجد له مثالًا فى التاريخ كله .

وسنضرب مثلا من تاريخ الغرب الحديث أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـــ ١٩١٨ م) لنوضح أهمية البعد الفكرى النظرى :

لقد سيطرت الشيوعية على روسيا ، وكانت هذه بمثابة إشارة تحذير بالنسبة لبريطانيا العظمى ، إذْ إنّها كانت تشكل خطراً على الجزء الشرقىّ لبريطانيا ، وفى نوفمبر تشرين الثانى ١٩١٨ م وصل وفد من ضباط الجيش الإنجليزى لمراقبة الوضع ، إلى سمرقند ، رغم أنه قال متنكراً ، بأنّه وفد تجارىّ ، جاء من أجل تجارة القطن فى وسط آسيا ، وكان من أعضاء ذلك الوفد كل من :« كولونل/كرنل بيلى ـــ كولونل / كرنل ايتهرتن ـــ وكولونل / ميجر بليكر » وبعد

عودتهم من تلك المهمة ، ألف « كرنل ايتهرتن » كتاباً أسماه « فى قلب آسيا الوسطى » وكان مما كتبه فى كتابه ذلك قوله :

The new Set Of ideas the Bolsheviks Was Potentially Much More Of aMenace to English domination in the Orient than all the Czar's armies in the past .

إنّ نظريات البلشفيين كانت أخطر بالنسبة إلى القوة من تلك التى كان يمكن أن تكون لجيش قيصر كله . إن القوة النظرية للإسلام المنزل من الله تفوق كثيراً النظريات الأخرى ، ولو استخدمها المسلمون فإن جيوش القوى الكبرى لا تستطيع أن تقف فى وجه فعاليتها الساحرة .

الفهرس

الفهرس

الموضــوع	الصفحة

النـــــاشر

الرسالة للإعلان الدولي

٧ ش الشيخ محمد النـادى ـ مدينة نصر ـ القاهـرة

ت : ٢٦٢٣١٠٥